التّفسير الجَامع

فضيلة الشّيخ الدّكتور محمّد عبد السّتّار السّيّد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

القرآن الكريم معجزةٌ خالدةٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ، وعطاؤه متجدّدٌ لا ينفد، وكلّما تطوّر العقل البشريّ استطاع أن يستمدّ من القرآن الكريم وعلومه ما يوافق التّطوّر العلميّ الّذي وصل إليه.

وآيات القرآن الكريم مكتنزةٌ بعطائها العلميّ والفكريّ والرّوحيّ، وهو كتاب هدايةٍ، فيه إشاراتٌ علميّةٌ لا يمكن أن تُصادم العقل البشريّ في أيّ زمنٍ من الأزمان.

وهذا التّفسير هو محاولة تدبّرٍ لآيات كتاب الله؛ امتثالاً لأمره ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمّد]، متمسّكين بهدي نبيّنا محمّد ﷺ، فهو الّذي عليه نزل وبه أخذ وعمِل، فقد كان ﷺ قرآناً يمشي بين النّاس في نهجه وسيرته وسلوكه وهديه وأقواله وأفعاله، وبالعلم الّذي به أمر ﷺ.

فكان هذا التّفسير الجامع محاولةً عصريّةً للأخذ من عطاء القرآن الّذي لم يفرغ في زمن النّزول، وإنّما تعدّى كلّ العصور، ومواكبةً لتطوّر العقل البشريّ ومعطيات العلم الحديث في فهم النّصّ من خلال التّفكّر والتّعقّل والتّدبّر الّذي أمر به القرآن الكريم: (أفلا يعقلون، أفلا يتفكّرون، أفلا يتدبّرون، أفلا ينظرون).

والله وليّ التّوفيق

الشّيخ الدكتور محمّد عبد السّتّار السيّد

سـورة يـــس

سُورَةُ (يـــس)

الآيات: (١-٨٣)

سـورة يـس

سورة (يس) سورةٌ عظيمةٌ، وهي سورةٌ محفوظةٌ في قلوب وأرواح ونفوس كثيرٍ منّا، وهذه السّورة لها كثيرٌ من الأسرار والعطاءات الإلهيّة الّتي أخبر عنها النّبيّ ﷺ وعن فضائلها.

وهي من السّور المكّيّة، عدد آياتها ثلاث وثمانون آية، فواصلها القصيرة لها وقعٌ قويٌّ في النّفوس المؤمنة، موضوعاتها الرّئيسة هي موضوعات السّور المكّيّة، تحدّثت عن توحيد الألوهيّة والرّبوبيّة وعاقبة المكذّبين بهما، والقضيّة الّتي يشتدّ عليها التّركيز في السّورة هي قضيّة البعث والنّشور.

من فضائل هذه السّورة:

عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**يس قَلْبُ الْقُرْآنِ، لَا يَقْرَؤُهَا أَحَدٌ يُرِيدُ اللَّهَ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ، فَاقْرَؤُوهَا عَلَى مَوْتَاكُمْ**»[1]، فسورة (يس) هي قلب القرآن الكريم، والقلب هو نبض الحياة، فسورة (يس) هي نبض الحياة في دنيانا، وعظمة هذه السّورة بأنّها لِمَا تُقرأ له، وكأنّها تضخّ الحياة في كلّ شيءٍ.

(الآية ١) - ﴿يسٓ ۝١﴾:

﴿يسٓ﴾: يصحّ أنْ تكون حروفاً مُقطّعة مثل: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿طه﴾، ويصحّ أنْ تكون حروفاً مُقطّعة صادفتْ اسماً؛ لذلك من أسمائه ﷺ: يس وطه، ولا

(١) مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: كتاب التّفسير، باب سورة البقرة، الحديث رقم (١٠٨١٠).

مانع أن يكون الاسم على حرفين، بل على حرفٍ واحدٍ مثل: ﴿نٓ﴾ في قوله ﷻ: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾ [القلم]، وقد جُعِل عَلَماً على سيّدنا ذي النّون عليه السلام، كذلك ﴿قٓ﴾ أصبح عَلَماً على الجبل المعروف، فهذه حروفٌ مُقطَّعة، ويمكن أنْ تنتقل إلى العَلَميّة، ويُسمَّى بها.

وكثيراً ما تحدَّثنا عن الحروف المقطَّعة في أوائل السّور، وكلّما مَرَّت معنا حروفٌ مُقطَّعةٌ لا بُدَّ أنْ نتحدّث عَمَّا تحتمله من المعاني، والحرف له اسمٌ ومُسمَّى، اسم الحرف لا يعرفه إلّا المتعلّم، أمّا مُسمَّى الحرف فيعرفه المتعلّم والأمّيّ، فكيف عرف محمّدٌ ﷺ أسماء هذه الحروف ونطق بها، وهو الأمّيّ الّذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة؟ الجواب: أنّه عُلِّم وعرف من ربّه ﷻ.

وحين نتأمّل حروف اللّغة العربيّة نجدها ثمانية وعشرين حرفاً، والحروف المقطَّعة في القرآن الكريم أربعة عشر، فهي نصف الحروف العربيّة، وللفخر الرّازي –رحمه الله– جدولٌ مدهشٌ ينظّم هذه الحروف، ويوضّح أنّها وُضعِت لحكمةٍ، ووُضِعَتْ بقدرٍ وحساب، هذه الحروف الأربعة عشر تُقسّم كما يأتي:

مجموع حروف اللّغة ثمانية وعشرون حرفاً، التّسعة الأوائل بداية من الألف إلى الذّال لم تأخذ الحروف المقطّعة منها إلّا حرفين: الألف والحاء، وتركت منها سبعة أحرف، أمّا الأحرف التّسعة الأخيرة، وتبدأ من الفاء فقد أخذتْ منها الحروف المقطّعة سبعة أحرف، هي: القاف والكاف واللّام والميم والنّون والهاء والياء، وتركتْ منها الفاء والواو، فهي على عكس التّسعة الأُولى، أمّا الحروف العشرة في الوسط الّتي تبدأ من الرّاء وتنتهي بالغين، فلها

نَسَقٌ آخر، حيث أخذت الحروفُ المقطّعة منها الأحرف غير المنقوطة، وهي الرّاء والسّين والصّاد والطّاء والعَين، وتركت منها الزّاي والشّين والضّاد والظّاء والغين.

إذا جمعنا هذه الأحرف المقطّعة نجدها تكوّن عبارة: (نصٌّ حَكيمٍ لهُ سِرٌّ قاطع)، وهكذا نرى أنّ هذه الحروف لم تُوضع اعتباطاً، إنّما وُضِعت بقدرٍ ونظامٍ له حكمةٌ ووراءه أسرار، وُضِعت بهندسةٍ مقصودة الذّات، فهي مثل أسنان المفتاح، والله ﷻ يفتح بها لمَنْ يشاء، ومن حكمته ﷻ أنّه لم يُعْطِ أسرار هذه الحروف كلّها لجيلٍ من الأجيال، إنّما وزَّع عطاءها على مَرِّ الأزمان بحيث لا يستقبل جيلٌ من الأجيال كلامَ الله ﷻ بلا عطاء، ليظلّ القرآن الكريم نوراً يُضيء جنبات الدّنيا إلى قيام السّاعة.

نستهلّ السّورة كبقيّة السّور بالاستعاذة والتّسمية قبلها، قال ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴿٩٨﴾﴾ [النّحل].

ونبدأ أيّ عملٍ بـ: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، ولا نُقبل على عملٍ إلّا باسم الله ﷻ، بدليل أنّ الله ﷻ بيّن لنا على لسان نبيّه ﷺ: «**كلّ أمرٍ ذى بال لا يُبدَأ فيه ببسم الله الرّحمن الرّحيم أقطع**»(١).

وللعلماء أقوالٌ في (يس)، قالوا: الياء للنّداء و(س) من أسمائه ﷺ؛ لأنّ من عادة العرب أنْ تحذف بعض حروف الكلمة، وتُبقي على الحرف المميّز قويّ الجرْس.

---

(١) جامع الأحاديث: قسم الأقوال، حرف الكاف، الحديث رقم (١٥٥٨٢).

وقال آخرون: بل اسمه ﷺ (يس)، وحُذِفت ياء النّداء، والخطاب لمحمّد ﷺ.

(الآية ٢) - ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾:

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾: هذه الواو تسمّى واو القسم، فما دخلتْ عليه كاليمين، تأتي بالدّليل، وقد يأتي اليمين فيه الدّلالة على الغرض المراد. فالله تبارك وتعالى يقول لنبيّه ﷺ: أنت مرسلٌ وأنا أحلف بالقرآن؛ لأنّه دليلٌ على أنّك رسولٌ صادق.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾: كلمة قرآن مصدر لقرأ، تقول: قرأت قراءة وقرآناً، ولا بُدَّ أنّ الزّيادة في المبنى تدلّ على الزّيادة في المعنى، فقلنا: قرآناً، لنفرّق بين قراءة القرآن الكريم وقراءة غيره، وهي أيضاً تدلّ على أنّه كتابٌ مقروء، ومرّةً أخرى يسمّيه المولى ﷻ الكتاب؛ لأنّه مكتوبٌ، فالقرآن الكريم مقروءٌ من الصّدور، مكتوبٌ في السّطور، ومرّةً أخرى يسمّيه الذِّكْر، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]؛ لأنّه يُذكِّرنا بعهد الفطرة الأولى.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: وصف الله ﷻ القرآن الكريم بالحكمة، وهي وَضْع الشّيء في موضعه الحقّ ليؤدّي مهمّته، والمعاني الدّينيّة كلُّها مأخوذةٌ من مُحسَّات قبل الدّين، مثلاً الفَرَس يركبه الإنسان ليُوصله إلى مراده، فإنْ كان مراده من ركوب الفرس التّنزُّه بين الحقول سار به سَيْراً بطيئاً كسَيْر الحنطور مثلاً، وإنْ أراد به قَطْع المسافة جرى به كالرّيح، لذلك جعلوا للحصان لجاماً يُوضَع في حنكه ليكبح سرعته، ويتحكّم فيه، هذا اللّجام يُسمّى الحَكَمَة، ومنها الحِكْمَةُ الّتي تكبح جماح الأهواء كيلا يشرد الإنسان، وتضع المسائل في

موضعها، فالإنسان له هوىً يميل به، وينحرف بحركته عن الجادّة، فيأتي القرآن الكريم بالحقّ الواضح الّذي يُقوِّم هذا الميل ويُصلحه، والقرآن الكريم في الحقيقة حكيمٌ؛ لأنّه محكمٌ من الحكيم الأعلى ﷻ، فالقرآن الكريم كلامٌ من الحكيم، وهو بالنّسبة إلى الإنسان كالحَكَمة للفرس.

ولحكمة القرآن الكريم اختُصّ بأشياء، فتناول القرآن الكريم لا يكون كتناول غيره من الكتب، فالكتاب العاديّ تتناوله في أيّ وقتٍ وعلى أيّ حالٍ كنت، أمّا القرآن الكريم فلا يمسُّه إلّا طاهرٌ، كما قال الحقّ ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ [الواقعة].

فالله ﷻ جعل لنا هذه الضّوابط النّفسيّة لنعرف أنّنا مُقبِلون على كتابٍ له تميُّز عن سائر الكتب الأخرى.

كذلك للقرآن الكريم خصوصيّة في حروفه، فالحروف هي الّتي تُكوِّن الكلمات، فهي عبارةٌ عن نبرات صوتيّة، لكلٍّ منها منطقة في أعضاء الكلام، مثلاً حروف تخرج من الحلق، هي: هَمْزٌ فَهَاءٌ ثُمَّ عَيْنٌ حَاءُ ثُمَّ غَيْنٌ فَاءُ، فإنْ خرجنا من منطقة الحلق نجد الحروف اللّسانيّة الّتي تُنطَق من اللّسان بدايةً، من: أقصاه ثمّ وسطه ثمّ طرفه، فالقاف مثلاً تخرج من أقصى اللّسان، والشّين والجيم من وسطه، والنّون والرّاء من طرفه، كذلك هناك حروفٌ تخرج من الشَّفة..، فلا بُدَّ أنْ نلتزم بهذه المخارج الصّوتيّة عند قراءة القرآن الكريم، على خلاف قراءة أيّ كتابٍ آخر، فكمال القرآن الكريم لا يتعدّى لغيره، وله طريقةٌ معيّنة نسمّيها أحكام التّجويد، ونغمة مضبوطة لا بُدَّ أن تُراعى.

فكمال القرآن الكريم لا يُتعدَّى حتّى في نطقه؛ لأنّ هذا شيئاً يختصّ به وحده دون غيره من الكلام، فإنْ عدَّيْتَ خصائص القرآن الكريم إلى غيره من الكلام جاء سخيفاً مردوداً لا يُقبل.

نفهم أنّ حكمة القرآن الكريم جاءت من هذه الخصوصيّة: ففي حروفه حكمةٌ، وفي كلماته حكمةٌ، وفي نَظْمه حكمةٌ، وفي ترتيله حكمةٌ، وفي أسلوبه حكمةٌ، وفي معانيه حكمةٌ، وفي عطائه حكمةٌ.. لا يُبَارى لا يُنقَل إلى غيره.

(الآية ٣) - ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾:

هذا جواب القسم، يردّ الحقّ ﷻ على كفّار مكّة، ويقسم ﷻ لهم: إنّك يا محمّد لمن المرسلين، والله ﷻ يؤكّد كلامه هنا بأكثر من مؤكّد، فاستخدام التّأكيد بـ(إن) و(اللّام)، وقبل ذلك القسم؛ لأنّ الكفّار منكرون لرسالته ﷺ.

وقلنا: إنّ هذه الآية جاءت دليلاً وبرهاناً في صورة اليمين، كأنّ الله تعالى يقول: الّذي يقرأ القرآن الكريم لا بُدَّ أن يؤمن بأنّك يا محمّد مُرسَلٌ من الله ﷻ؛ لأنّهم أمّة كلامٍ وتذوُّق، وما وُجِدت أمّةٌ من الأمم حتّى المعاصرة تقيم معارض للكلمة، أمّا العرب في جاهليّتهم فقد أقاموا للكلمة أسواقاً ومعارض يتبارى فيها الخطباء والشّعراء كلّ عام في عكاظ وذي المجنّة وغيرها.

(الآية ٤) - ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾:

القرآن الكريم هو الصّراط المستقيم، والله ﷻ يقول للنّبيّ ﷺ: (إنّك على صراطٍ مستقيمٍ)، وفق ما جاء في القرآن الكريم، وسنّة النّبيّ ﷺ كلّها تمثّل هذا الصّراط المستقيم.

﴿صِرَٰطَ﴾: الصّراط: هو الطّريق.

﴿مُّسۡتَقِيمَ﴾: المستقيم: هو أقصر مسافة بين نقطتين.

فأنت تريد طريقاً مستقيماً يوصلك إلى غايتك الّتي هي النّعيم في الدّنيا والآخرة، والقرآن الكريم هو الصّراط المستقيم.

ولكلمة الصّراط معنى آخر، هو الطّريق المضروب على متْن جهنّم كما بيّن النّبيّ ﷺ أنّه أَحَدُّ من السّيف وأدَقُّ من الشّعر، ويتفاوت النّاس في عبورهم على الصّراط كما أخبر ﷺ: «**فَيَمُرُّونَ عَلَى قَدْرِ نُورِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالسَّحَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَانْقِضَاضِ الْكَوْكَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الْفَرَسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرَّحْلِ، حَتَّى يَمُرَّ الَّذِي يُعْطَى نُورُهُ عَلَى ظَهْرِ قَدَمَيْهِ، يَجْثُو عَلَى وَجْهِهِ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، تَخِرُّ يَدٌ وَتُعَلَّقُ يَدٌ، وَتَخِرُّ رِجْلٌ وَتُعَلَّقُ رِجْلٌ، وَتُصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَخْلُصَ**»[1]، وهناك من يقع في جهنّم فلا يخرج، والعياذ بالله.

والصّراط المستقيم في الحياة هو نهج القرآن الكريم، وما جاء به سيّدنا رسول الله ﷺ.

(الآية ٥) - ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾:

﴿تَنزِيلَ﴾: تنزيل القرآن الكريم جاء من جهة العلوّ، وعندما نقول: تنزيل، فإذاً هناك شيءٌ أعلى وشيءٌ أدنى، كالحديد الّذي قال عنه ﷻ:

---

(١) مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: كتاب البعث، بابٌ جامعٌ في البعث، الحديث رقم (١٨٣٥٢).

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: من الآية ٢٥]، فالحديد يستقرّ في باطن الأرض، لكنّه أُنزِل من السّماء، وقد اكتشف العلماء هذا الأمر حديثاً. والقرآن الكريم نزل من الأعلى فيجب أن يستقرّ في باطن القلب، لذلك (يس) هي قلب القرآن الكريم.

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾: لماذا قال هنا: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ولم يقل: (القويّ الحكيم)؟ لأنّ الله ﷻ عندما نزّل القرآن الكريم فإنّه يقول للإنسان: هو رحمةٌ لك وشفاء، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: من الآية ٨٢]، ولكنّني عزيزٌ؛ أي أنّي لا أُغلَب، ولا أحتاج لعبادة خلقي، فالّذي لا يسير على الصّراط المستقيم، على طريق القرآن الكريم فإنّني لا أُغلب، سأغلبه ولو بعد حين؛ أي سيدخل جهنّم، لذلك جاء بهاتين الصّفتين.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: هو المستغني عن عبادتنا جميعاً، القويّ الّذي لا يُغلب، وقد جاء في الحديث القدسيّ: «**يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ**

أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»(١).

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: رحيمٌ؛ لأنّك إذا أخذت بالقرآن الكريم فلا شكّ بأنّ الرّحمة هي النّصيب.

(الآية ٦) - ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾: المشكّكون في القرآن الكريم يقولون: إنّ القرآن فيه تناقضٌ؛ لأنّه يقول في سورة (يس): ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾، ويقول في سورةٍ أخرى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾ [مريم]، وإسماعيل عليه السلام رسولٌ جاء للعرب، فكيف يقول القرآن الكريم: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾، مع أنّ آباءهم قد أُنذروا بإسماعيل عليه السلام، وقد قال سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾ [فاطر: من الآية ٢٤]؟ الجواب: كلّ من يشكّك في القرآن الكريم لا يعلم أسراره وأسرار اللّغة العربيّة، ولا ينبغي لأحدٍ أن يتصدّى ويقول بالقرآن الكريم برأيه، فالّذي يتحدّث بالقرآن الكريم يجب أن يكون عالماً ليس فقط بالشّريعة، وإنّما باللّغة العربيّة أيضاً، وهذه من أهميّة تفسير كتاب الله عزّ وجلّ؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى يقول للنّبيّ ﷺ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾، فهي ليست (ما) النّافية، بل هي اسمٌ موصول، والمعنى: لتنذر قوماً بالّذي أُنذِر به آباؤهم، فهو ينذر بما أنذر به إسماعيل عليه السلام.

﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾: فإسماعيل عليه السلام أنذرهم لكنّهم كانوا غافلين عن ذلك.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، الحديث رقم (٢٥٧٧).

(الآية ٧) - ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾:

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾: وفي آيةٍ أخرى قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصّافّات]، إذاً سَبَقَ القول من الله ﷻ، فقد يقول قائلٌ: لقد سبق القول من الله ﷻ، فلماذا يُعذِّبنا؟ لقد حقّ القول من الله ﷻ منذ الأزل، فقال الله ﷻ: فلان سيؤمن، وفلان لن يؤمن، وفلان سيسير على الطّريق المستقيم، وفلان لن يسير على الطّريق المستقيم، فهذا كلّه مكتوب، وبما أنّ القول قد حقّ من الله ﷻ، فلماذا يا ربّ تعذِّب، ولماذا تنذر النّاس بالأنبياء عليهم السلام؟ ولماذا هذا التّعب طالما أنّك تقول: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾؟ فالموضوع منتهٍ، فأكثرهم لن يؤمنوا، قَالَ رَجُلٌ عِنْدَ عُمَرَ رضي الله عنه: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ الْقَلِيلِ، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «مَا هَذَا الَّذِي تَدْعُو بِهِ؟»، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: من الآية ١٣]، فَأَنَا أَدْعُو أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْ أُولَئِكَ الْقَلِيلِ، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: "كُلُّ النَّاسِ أَعْلَمُ مِنْ عُمَرَ"(١).

وللجواب على سؤال: لماذا يعذِّب الله ﷻ العصاة؟ يجب أن نقف عند قول العلماء الّذين قالوا فيما روي من الآثار: إنّ للملائكة تعجّباً، تتعجّب من السّجلّات والحال الّذي يقوم به النّاس، وقد قال ﷻ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار]، وتعجُّب

---

(١) مصنّف ابن أبي شيبة: كتاب الدّعاء، مَا ذُكِرَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما مِنَ الدُّعَاءِ، الحديث رقم (٢٩٥١٤).

الملائكة من أنّه لا يحدث حدثٌ على الأرض إلّا وتقول: ما أعظم الله، ما أعلم ربّنا وأقدره، لقد حدث كما سبق منه القول، مع أنّ للنّاس اختياراً، لكن ما حدث هو ما سبق به القول، فهو علمٌ كاشفٌ لما يحدث، وليس علماً إلزاميّاً، فالملائكة تتعجّب: كيف فعلتم هذا الشّيء وأنتم مخيّرون أيّها النّاس؟ فالإنسان مخيّرٌ بين أن يؤمن أو لا يؤمن، يسرق أو لا يسرق، يرتكب الموبقات أو يعمل الصّالحات، فكيف اختار ذلك ووافق ما اختاره ما كتبه الله ﷻ؛ أي ما علمه ﷻ مسبقاً، وبالتّأكيد فالله ﷻ لا يحاسب النّاس على علمه، بل يحاسبهم على أعمالهم، فقوله ﷻ: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾؛ أي أنّ ما سيفعله الإنسان قد سبق وكتبه الله ﷻ، لكنّه لم يجبره على الفعل، وإنّما خيّره، بدليل قوله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾ [الأحزاب]، إذاً الإنسان هو الّذي اختار، لكن يجب أن نعلم بأنّ الله ﷻ خارج الزّمان والمكان، فهو خالق الزّمان والمكان، فعندما يقول ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، فهو غفورٌ رحيمٌ، (كان) ليس في الماضي، وعندما تتحدّث عن أمرٍ من الأمور، أنت مكلّف بأن تختار الطّريق، لكون الله ﷻ سبق لديه القول؛ أي سبق لديه العلم، أو أنّه كشف ما ستختار، فهو لا يحاسبك على كشفه للاختيار، وإنّما يحاسبك على الاختيار، ولا يستطيع العقل البشريّ أن يصل إلى كمالات الله ﷻ، وإلى معرفته بالأحداث الّتي ستحدث، هذا المعنى المراد من قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾.

(الآية ٨) - ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾:

﴿أَغْلَٰلًا﴾: الأغلال: مفردها غلّ، وهو الحديدة الّتي تمسك اليد وتشدّها تحت الذّقن، وحين تشدّ اليد تحت الذّقن يرتفع الرّأس إلى أعلى.

﴿مُّقْمَحُونَ﴾: رافعوا الرّؤوس إلى الخلف.

ومن ثمّ يرتفع مستوى النّظر إلى أعلى، فلا يستطيع أن يرى موضع قدمه، فكيف سيسير على الصّراط المستقيم؟ لن يستطيع بالتّأكيد، لذلك عندما يأتي يوم القيامة يأتي بهذه الطّريقة؛ لأنّه لم يستطع أن يرى الحقيقة، لم يستطع أن يرى الصّراط المستقيم، ولم يستطع أن يرى القرآن الكريم وعظائمه، يداه مغلولتان إلى عنقه، وفيها إشارةٌ إلى الّذين يغلّون أيديهم عن العطاء للآخرين، والإنفاق على الفقراء والمساكين، تصويرٌ قرآنيٌّ بديع: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾.

(الآية ٩) - ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾:

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: أي أمامهم.

﴿سَدًّا﴾: حاجزاً ومانعاً.

هل معنى هذا أنّ الله ﷻ يُعين الكافر على الكفر؟ الجواب: نعم؛ لأنّ الله ﷻ قد بيّن للنّاس، فمن اختار الكفر يعينه على كفره، ومن اختار الإيمان يعينه على الإيمان، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ

تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمّد]، ومن اختار الكفر يجعل من بين يديه ومن خلفه سدّاً؛ أي من أمامه سدّاً فلا يرى المصير، ومن خلفه فلن ينظر إلى الّذين ماتوا من خلفه، ولم يتّعظ بالأقوام السّابقين.

﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾: الغشاوة تكون على الأعين.

﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾: لأنّ الشّمس تشهد، والقمر يشهد، والماء يشهد، والطّريق يشهد، والشّجر يشهد، والإنسان يشهد، وسمك البحار يشهد، وكلّ شيءٍ يشهد أنّه لا إلّا الله، إلّا أنت: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، فأنت اخترت طريق الكفر، لذلك عندما أراد النّبيّ ﷺ أن يخرج من بيته عند الهجرة، وكان المشركون يحيطون ببيته إحاطةً كاملةً، فتح الباب وقرأ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، فلم يروا شيئاً وخرج النّبيّ ﷺ بسرّ هذه الآية، وبسرّ سورة (يس).

(الآية ١٠) - ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾:

من لا يعرف بالقرآن الكريم ولا بفقه اللّغة العربيّة يقول: بما أنّ الله ﷻ قال: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ فلماذا الإنذار، ولماذا الدّعوة إلى الله ﷻ؟ الجواب: السّوائيّة هنا ليست بالنّسبة إلى رسول الله ﷺ وليست بالنّسبة إلى الدّعاة، بل بالنّسبة إلى النّاس، فهذه السّوائيّة للنّاس الّذين اختاروا الكفر، وليست لك أنت، أمّا أنت فستأخذ الأجر من الله ﷻ

على دعوتك وتبلّغ أوامره، كما قال ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»[1]، ومن اختار طريق الكفر والعناد سواءٌ عليه ءأنذرته أم لم تنذره لا يؤمن، فهو عندما اختار فإنّه لن يؤمن؛ لأنّه لا إكراه في الدّين، والأنبياء عليهم السلام كلّهم جاؤوا بالخيار، هذا هو الدّين، وهذه أوامر الله ﷻ، فإن أردت أن تتّبع أوامره أعانك الله ﷻ، وإن أردت أن تكفر وتجحد فالله ﷻ يزيد في طغيانك، قال ﷻ: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: من الآية ١٥].

(الآية ١١) - ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾: من الّذي ينتفع بالإنذار؟ من اتّبع الذّكر، والذّكر هو القرآن الكريم، ومَن ينتفع بالذّكر والإنذار هو مَن آمن بالله ﷻ وبالجنّة والنّار، وهو من يذكر الله ﷻ.

﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾: وهذه نقطةٌ مهمّةٌ، فنحن نخشى الرّحمن بالعلن، بالمشهد، لكن هل يا ترى كلّنا يخشى الرّحمن بالغيب؟ هل يا ترى في سرّنا نعلم بأنّ الله ﷻ يرانا؟ فأصل الخشية أن تكون في الغيب؛ أي في السّرّ وليس في العلن، كما قال النّبيّ ﷺ عن الإحسان: «**أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**»[2]، فهناك رقيبٌ مستمرٌّ عليك،

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذُكِر عن بني إسرائيل، الحديث رقم (٣٤٦١).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النّبيّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم السّاعة، الحديث رقم (٥٠).

هذا الرّقيب ليس إنساناً مثلك، وليس قانوناً فقط، وإنّما هو رقيبٌ بالغيب، تعلم بأنّ الله ﷻ يرى، فلا تستطيع أن تعصيه، وإذا أردت أن تعصيه فاذهب إلى مكانٍ لا يراك فيه ﷻ.

رُوِي أنّ المعتضد وهو أحد ملوك دولة بني بُوَيْه أيّام الخلافة العبّاسيّة، وكان مشهوراً بالذّكاء والعدل، وحدث أن جاء رجلٌ إلى سوق بغداد ليبيع عِقْداً نفيساً ليحجّ بثمنه، فلم يجد في السّوق مشترياً لنفاسة العِقد، ومرَّ الرّجل بشيخٍ وقور عليه علامات الصّلاح، فقال: هذا رجلٌ أمينٌ أُودع عنده هذا العِقد أمانة حتّى أعود من الحجّ، فلمّا عاد من الحجّ سأل الشّيخ عن العِقد الّذي تركه عنده، فأنكره الشّيخ، وخابت محاولاته كلّها لاستعادة العِقد، وعندما سمعه أحد المارّة قال: يا هذا، إنّه رجلٌ مخادعٌ كذّاب، اذهب إلى المعتضد، وسوف يُعيد لك العِقد بذكائه وحيلته، فذهب الرّجل إلى المعتضد وقصَّ عليه القصّة، فقال له: اذهب في الغد واجلس بجوار هذا الرّجل، وسوف أمرُّ عليك في موكبي، فلا تَقُمْ لي، وإنْ كلَّمتُك فرُدّ وأنت جالس، ودَعْني أتصرّف في هذه المسألة.

وفي الغد مَرَّ المعتضد في موكبه المهيب، وحوله الحاشية والصّولجان فنظر إلى صاحب العقد، وقال: يا فلان، منذ متى وأنت هنا؟ وكيف لا تخبرني بوجودك لأقابلك وأؤدّي لك حقّك.

سمع الشّيخ هذا الكلام فظنَّ أنّ الرّجل من معارف الملك ومن أتباعه، فارتعد ونادى صاحب العِقْد، وقال له: أرجوك لا تذكرني أمام الملك بحكاية العِقْد هذه، وقَام إلى العِقْد فردّه إلى صاحبه، فلقد خاف هذا الرّجل من

المعتضد ولم يخف من الله ﷻ، فقد خشي الرّحمن بالشّهود وليس بالغيب، وهذا الملحظ مهمٌّ جدّاً؛ لأنّه سرّ الإيمان.

وفي قوله ﷻ: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾: نجد أنّه ﷻ قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾، ولم يقل: (القويّ)، الرّحمن من الرّحمة، وهي الّتي يغفر الله ﷻ بها الذّنوب.

﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾: الأجر هو نعمةٌ من الله ﷻ، والأجر لا يكون كريماً، وإنّما الّذي يعطي الأجر هو الكريم، والمعنى أنّ كرم المعطي تعدَّى إلى العطيّة، فصارت العطيّة كريمة، فالأجر عند الله ﷻ كريمٌ، فكيف بأكرم الأكرمين؟

(الآية ١٢) - ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾:

هنا تركيز على قضيّة البعث والنّشور، والنّبيّ ﷺ لا ينطق عن الهوى.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾: يجب أن ننتبه إلى لفتات اللّغة العربيّة، فالله ﷻ قد اختارها وعاءً لكلامه؛ لأنّ هذه اللّغة ممكن أن تستوعب مجمل الأسرار وكذلك كمالات كلام الله ﷻ، والله ﷻ يتحدّث بأسلوبه وجلاله وكماله، وكمال الله ﷻ لا يحاط.

﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾: ﴿إِنَّا﴾ شبيهة بـ ﴿نَحۡنُ﴾، فما الفرق بين ﴿إِنَّا﴾ و﴿نَحۡنُ﴾؟ وهل يوجد تكرارٌ؟ الجواب: لا، بل هناك أسرارٌ، لماذا لم يقل: (إنّا نحيي الموتى)، فلماذا يقول: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؟ حتّى تعمل عقلك أيّها المؤمن، وتعلم بأنّ الله ﷻ هو وحده القادر على إحياء الموتى، فهناك أمورٌ كثيرة

تراها في هذه الدّنيا قد تكون بالظّاهر من الأمور المشتركات، فإذا سئلت: من هو الّذي خلقك؟ يكون الجواب: الله ﷻ، فإذا نظرت وجدت الأب والأمّ، وقد خرجتَ من رحم الأمّ، فتعتقد أنّ هناك اشتراكاً بهذا العمل، وكذلك عندما ترى النّور، ترى الماء، ترى تفاعل كذا مع كذا، تحرّكت الشّمس عند الكسوف.. فنرى اشتراك الأسباب وننسى المسبّب، أمّا إحياء الموتى فلم يشترك فيها أحد، وليس هناك أسبابٌ مع المسبّب، فليس إلّا الله ﷻ، فعندما يقول ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ لأنّكم لن تستطيعوا أن تحيوا الموتى مهما فعلتم أيّها النّاس، فإذا مات الإنسان انتهى الأمر، لذلك يقول: ﴿إِنَّا﴾ وأكّدها بـ: ﴿نَحْنُ﴾، ليعلم الإنسان أنّ هذا الأمر مختصٌّ فقط بالله ﷻ.

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾: الكتابة قبل الإحياء، الكتابة في الحياة الدّنيا، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار]، فالحسنات والسّيّئات تُكتب في الدّنيا، وبعد ذلك يتمّ إحياء الموتى، ومن ثمّ يحاسب الإنسان عليها، نكتب ما قدّموا من عملٍ فهو مسجّلٌ مكتوبٌ.

فالمولى ﷻ سيحيي الموتى، وموضوع الموت مُقلقٌ للإنسان، فهو يخاف؛ لأنّه سينتقل من دارٍ إلى دارٍ، ومن مرحلةٍ إلى مرحلةٍ، كان سيّدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول: خلقنا للأبد، وإنّما الموت هو انتقال من دارٍ إلى دار، فخلق الإنسان للأبد وهذه المرحلة هي مرحلة فقط، لحظات وينتقل بها الإنسان من دنيا فانية إلى دار خالدة باقية، لذلك طمأنك ربّك بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، فإيّاك أن تعتقد أنّ الموت هو النّهاية، وإيّاك أن تخاف من الموت، وإنّما خفْ من العمل الّذي قدّمته، فإذا قدمت إلى ربّك

فإنّا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا من أعمال، فسرّ الحياة وسرّ الوجود هو سرّ الموت، فما يقدّم الإنسان في حياته الدّنيا هي مزرعة للآخرة.

﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾: هل عمل الإنسان هو فقط الّذي يقوم به؟ فإذا حرمت وارثاً من إرثه، أليس هذا من أثر العمل؟ هل حرم الأب الإناث؟ هل علّم الأب الأولاد؟ هل نفع بعلمه؟ هل نفع بصدقته؟ بأثره في الحياة؟ هل أولاده على صلاحٍ؟ ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾؛ أي كلّ ما تركوه، آثارهم معهم، وقد قال ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**»[1]، فهناك عمليّة حسابات دقيقة، فهذه الحسابات راصدة. نكتب أثر ما قدّموا في الدّنيا، قال ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ**»[2]، فهذه الأمور كلّها من أثر الإنسان، وكما قلنا في سورة الكهف: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف]، فالجدّ كان صالحاً، فأراد الله ﷻ أن يعطيهما الكنز، وهذا من أثر العمل، فليطمئنّ الإنسان عندما يقوم بالعمل الصّالح، وليخف عندما يقوم بالعمل الطّالح.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب العلم، بَابُ مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً أو سَيِّئَةً وَمَنْ دَعَا إِلى هُدًى أو ضَلَالَةٍ، الحديث رقم (١٠١٧).

(٢) سنن التّرمذيّ: أبواب الأحكام، باب في الوقف، الحديث رقم (١٣٧٦).

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾: هناك فارقٌ ما بين الإحصاء والكتابة، الإحصاء هو عدٌّ، وليس فقط كتابة العمل وأثره، وإنّما تتمّ عمليّة مراجعة الحسابات وتدقيقها.

﴿فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾: الإمام هو الّذي يؤتمّ به، وهو الّذي يُتَّبَع، وكلّ شيءٍ أحصيناه؛ أي أعددناه في إمامٍ مبينٍ، تمّ الجمع والإحصاء، ووضعت الأعمال كلّها في إمامٍ، وهو اللّوح المحفوظ الّذي حُفِظَت فيه الأعمال منذ الأزل، والإنسان هو الّذي عمل هذه الأعمال.

(الآية ١٣) - ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾:

لا بدّ أن نتحدّث عن ضرب الأمثال في القرآن الكريم، والضّرب هو إيقاع شيءٍ على شيءٍ، ويتوجّب أن يكون الضّارب أقوى من المضروب، يقول الرّافعيّ:

أَيا هَازِئاً مِنْ صُنُوفِ القَدَرِ بنفْسِكَ تُعنف لَا بالقَدَر
وَيَا ضَارِباً صَخْرةً بِالعَصَا ضَرَبْتَ العَصَا أَمْ ضرَبْتَ الحَجَر؟

والضّرب يؤدّي إلى الإيلام كما قلنا، لذلك فإنّنا عندما نسمع الأمثال: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا﴾، فهناك ضربٌ على العقل وليس على اليد، فالأمثال في القرآن الكريم كثيرةٌ، وفي سورة النّور يقول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ﴾ [النّور: من الآية ٣٥]، هذا أعظم مثلٍ ضُرب على وجه

الأرض، هذا المثل هو مثلٌ للتّنوير الّذي ينوّره الله ﷻ؛ لأنّنا لا نستطيع أن نحيط بنور الله ﷻ، فلنلحظ هذا المثل بعظمته، ومعناه باختصارٍ شديدٍ: يتعلّق بمشكاة، الّتي هي نافذة (كوّة) صغيرة، لماذا المصباح في زجاجة؟ سؤال فيزيائيّ، كي يحجب الهواء ويمنع من الدّخان فيكون النّور صافياً، الزّجاجة كأنّها كوكب دريٌّ، والكوكب الدّريّ يضيء بذاته، ثمّ إنّ هذا المصباح يُوقَد بزيتٍ من أرقى أنواع الزّيوت وهو زيت الزّيتونة، هذه الزّيتونة لا هي شرقيّة فتكون حارّة، ولا هي غربيّة فتكون باردة، والزّيت من أنقى أنواع الزّيوت؛ لأنّه يُضيء بنفسه، ولو لم تمسسه نار، نورٌ على نور، تصوّروا هذه المجموعة كلّها من الأنوار تضيء، وهذا المثل ليس هو نور الله ﷻ، وإنّما هو تنوير الله ﷻ.

وهنا في قوله ﷻ: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾:

أيّ قرية؟ أيّ مرسلين؟ لا نعرف، والله ﷻ لا يريد منّا أن نعرف، فلا العلم فيها مفيد، ولا الجهل عنها مضرّ، لكن المهمّ هو العبرة من المثل، بعض المرويّات قالت: بأنّها منطقةٌ هنا أو منطقةٌ هناك، وبأنّ المرسلين الاثنين، أرسلهم سيّدنا عيسى عليه السلام إلى النّاس في تلك المدينة، لكنّ الله ﷻ لم يقل، لماذا لم يقل من هم المرسلون وما هي القرية؟ لأنّه يريد ألّا نتعلّق بالبلد أو بالأشخاص، لكنّه يريد أن تبقى العبرة.

(الآية ١٤) - ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾:

يوجد أمامنا الآن اثنين من المرسلين كذّبهم القوم فعزّز الله ﷻ بثالث، لماذا لم يقل: فعزّزناهما بثالث؟ لأنّ الله ﷻ يعزّز الحقّ ولا يعزّز الأنبياء.

فقد جاؤوا إلى قومٍ ضالّين، ولديهم كثيرٌ من الجحود، والنّكران بالإيمان.

﴿فَعَزَّزْنَا﴾: أي قوّيْنا.

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾: بدأ هنا حوار عقل وفكر، ولذلك الإسلام ليس إسلام قهر ولا إرهاب، لنلحظ كيف ينتهي الحوار الفكريّ بين من لديه الحجّة والبيان وبين من ليس لديه الحجّة أو البيان، قالوا: إنّا إليكم مرسلون، بدأ الحوار، فلمّا كذَّبوا وأنكروا للمرّة الثّانية كان لا بُدَّ من تأكيد الكلام على هذا النّحو: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾، وكلّ كلمة من هذه العبارة فيها تأكيدٌ، أوّلاً بـ(إنَّ)، ثمّ أسلوب القصر في تقديم الجار والمجرور ﴿إِلَيۡكُم﴾.

(الآية ١٥) - ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥﴾:

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾: يعدّون بشريّة الرّسل قَدْحاً في الرّسالة، فيعتقدون أنّه يجب أن يكون الرّسل من الملائكة، لكن كيف تتحقّق الرّسالة إذا لم يكُنْ الرّسول من البشر؟ فالرّسول يجب أن يكون أسوةً سلوكيّةً للنّاس، ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: من الآية ١١٠]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ٩٥﴾ [الإسراء]، هذا أوّل ردٍّ عليهم.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾: دلّ على غبائهم في الأداء، فعجيبٌ منهم أنْ يعترفوا لله ﷻ بصفة الرّحمة، وهم لا يؤمنون به، ومن مقتضيات هذه الرّحمة أنّه ﷻ أرسل إليهم بشراً رسولاً.

﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾: أنتم تكذبون علينا.

(الآية ١٦) - ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾:

يؤكّد الرّسل عليهم السلام رسالتهم، فيقولون: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾، وجملة: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ﴾ حلّت محلّ القسم، فالأمر إمّا أنْ يكون صحيحاً، أو غير صحيح.

(الآية ١٧) - ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾:

وما علينا إلّا أن نبلّغكم رسالة الله ﷻ الّتي أُرسلنا بها إليكم بلاغاً يبيّن لكم أنّا أبلغناكموها.

(الآية ١٨) - ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾:

كان جوابهم أنّهم كذّبوا وأنكروا فقالوا:

﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾: أي تشاءمنا بكم.

والتّطيُّر من الطّيَرة، وكانت عادة معروفة عند العرب، فكانوا حين يريد أحدهم عمل شيءٍ، يأتي إلى طيرٍ فيزجره ويُطلقه، فإنْ طار إلى اليمين تفاءل وأمضى ما ينوي عليه، وإنْ طار إلى اليسار أمسك وتشاءم، وقد حَرَّم الإسلامُ هذه العادة ونهى عنها.

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾: أي عمّا تقولونه من أنّكم مُرْسَلُون بمنهجٍ، فالرّسل تحدّثوا بالقول، لم يفعلوا شيئاً، بل باللّسان والكلمة الطّيّبة، وليس بالكلمة الجارحة، ولا الرّصاصة القاتلة، وإنّما الكلمة الجارحة والفعل السّيّئ جاء من الّذين تصدّوا للرّسل.

﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: فجمعوا عليهم الرّجم والعذاب الأليم، والرّجم غير العذاب، الرّجم رَمْيٌ بالحجارة حتّى الموت، فهو إنهاءٌ للعذاب، فمَنْ مات لن تستطيع أنْ تُعذِّبه، لذلك قالت العرب: لا يضير الشّاة سلخها بعد ذبحها.

(الآية ١٩) - ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾:

﴿طَٰٓئِرُكُم﴾: يعني شؤمكم.

﴿مَّعَكُمْ﴾: أي ملازم لكم.

﴿أَئِن ذُكِّرْتُمْ﴾: أئن ذُكِّرتم بالله ﷻ وبمنهج خالقكم، وبما يُسعدكم في دنياكم تكون النّتيجة أنّكم تهدّدون المُذَكِّر لكم بالرّجم وبالعذاب الأليم، بدل أنْ تُعينوه وتتّبعوا ما جاءكم به.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: أي متجاوزون للحدِّ؛ لأنّ الأمر بيننا وبينكم لم يخرج عن كونه مناظرةً كلاميّةً لم نتعدَّ فيها حدود البلاغ بأنّنا مُرْسَلون إليكم، فكانت النّتيجة أنْ قابلتم المناظرة الكلاميّة بهذا الفعل القاسي المسرف المتجاوز للحدِّ، حيث جمعتم علينا الرّجْم والعذاب الأليم.

(الآية ٢٠) - ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾: يدلّ على أنّ الدّعوة إلى الله ﷻ كانت منتشرة في المدينة ولو في السّرّ، وأنّ الرّسولين الأوّلين اللّذين كذّبهما القوم كان لهما أنصارٌ مؤمنون بهما، مُصدِّقون لدعوتهما، فلما جاء الثّالث وأيضاً كذَّبه القوم أخذتْ هؤلاء المؤمنين حَمِيَّة الحقّ، وكان منهم هذا الرّجل الّذي جاء من أقصى المدينة يسعى لِنُصْرة الحقّ وإعلاء كلمته.

﴿يَسْعَىٰ﴾: أي أنّ مجيئه لم يكُنْ عاديّاً، إنّما مسرعاً يجري.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ نداءٌ لتحنين المنادَى، كأنّه يقول: يا أهلي، يا أهل بلدي، فذكر ما بينه وبينهم من صلات المودّة والرّحمة.

(الآية ٢١) - ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾: يعني لم يطلبوا منكم أجراً على دعوتهم، وهذا لا يُقال إلّا إذا كان العمل الّذي قام به يحتاج إلى أجرٍ، والرّسول ما جاء إلّا لينفع المرسَل إليهم، فهو منطقيّاً يحتاج إلى أجرٍ، لكن مَنْ يستطيع أنْ يوفيه أجره؟ لا أحد يوفيه أجره إلّا الله ﷻ؛ لأنّ نَفْع الرّسول يتعدَّى نفْع الدّنيا إلى نفع الآخرة، فمَنْ من البشر يعطي الرّسول ما يستحقّه؟ لذلك رأينا الرّسل عليهم السلام جميعاً يقولون هذه الكلمة: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس: من الآية ٧٢]، يعني: أنتم أيّها القوم لا تملكون مقدار أجري، ولا

تقدرون على تقييمه، إنّما يعطيني أجري الّذي أعمل من أجله.

رسل الله عليهم السلام كلّهم قالوا هذه الكلمة إلّا رسولين، هما: سيّدنا إبراهيم، وسيّدنا موسى عليهما السّلام؛ لأنّ إبراهيم عليه السلام كانت أوّل دعوته لأبيه آزر، فهناك واجبٌ تجاه الأب، ﴿*وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: من الآية ٧٤]، لذلك لم يقل: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، فالواجب أوّلاً أن تدعو أباك، فهذا جزء من واجبه عليه السلام تجاه والده أو عمّه، وكذلك سيّدنا موسى عليه السلام أوّل ما دَعا دَعا فرعون الّذي ربَّاه في بيته، وله فَضْلٌ عليه، وله حقّ عليه أن يدعوه.

(الآية ٢٢) - ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾: حوارٌ فكريّ، ثلاثة مرسلين، وهذا هو الرّابع الّذي جاء من أقصى المدينة، يقول لهم: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، استخدم العقل والحكمة والحوار، ثمّ يلتفت هذا الرّجل إلى نفسه، فيقول للقوم: أنا لا آمركم أمراً أنا عنه بنَجْوَة، ولو كنتُ سأغشُّكُم فلن أغشَّ نفسي.

﴿فَطَرَنِى﴾: أي خلقني من العدم.

هو الّذي صنعني، أوجدني من عدم، وأمدَّني من عُدم، ولا زال يُوالي عليَّ نعمه، فما يمنعني أن أعبده وهو أَوْلَى بالعبادة.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: يذكّرهم بالرّجوع إلى الله سبحانه وتعالى، ﴿*مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه]، فالإنسان عندما يموت فإنّه قد عاد ورجع إلى ربّه جلّ جلاله.

(الآية ٢٣) - ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾:

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾: الاستفهام في: ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ يحمل معنى التّعجُّب والإنكار، فهو يتعجّب وينكر: كيف يتّخذ من دون الله ﷻ آلهة، والله ﷻ هو الّذي خلقه.

﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾: هذه العبارة فيها لفتةٌ لطيفةٌ ينبغي تأمّلها؛ لأنّ صفة الرّحمة في الرّحمن تتناقض مع الضّرّ، فكيف جمع السّياق بينهما؟ نقول: إذا فسّرتَ ما يجري عليك به قَدَر الله ﷻ على أنّه ضُرٌّ لك فتعقَّل أنّه من رحمن، فلا بدّ أن يكون لمجريه عليك وهو الرّحمن حكمةٌ فيما أجرى، لذلك نقول: أحمدك ربّي على كُلِّ قضائك وجميع قدرك، حَمْدَ الرّضا بحكمك، لليقين بحكمتك.

فكأنّ الحقّ ﷻ يقول لك: تنبّه أنّه ليس كلّ ما تراه بقوانينك ضارّاً لك، فمُجريه عليك رحمن، ففي طيَّات هذا الضّرّ نَفْعٌ كثيرٌ، كما يقدّم الأب الحنون ولده للطّبيب فيُجري له جراحةً مؤلمةً، ليُصلح باقي الجسم، فهذا ضررٌ في الظّاهر، وفي الحقيقة رحمةٌ به، فلا تحكم على أقدار الله ﷻ الّتي يُجريها عليك إلّا من منطلق أنّها من رحمنٍ أرحم بك من الوالدة بولدها، وأنت خَلْقه وصَنْعته.

(الآية ٢٤) - ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤﴾:

﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ﴾: إنْ فعلتُ ذلك، وذهبتُ إلى عبادة هذه الآلهة أكون في ضلال.

﴿مُّبِينٍ﴾: بيّن واضح.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، كأنّ الضّلال يحاصره ويحيط به من كلّ ناحية، بحيث لا يستطيع أنْ ينجو منه.

(الآية ٢٥) - ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾:

﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾: هل آمنوا حتّى قال لهم: ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾؟ الجواب: لا، لكن هذا قرآن كريم، والله ﷻ يرصد لنا الأجواء والحوار، فهذا الرّجل جاء من أقصى المدينة أمام المرسلين، فالتفت إليهم وقال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾، يُسمع المرسلين ويُسمع القوم.

(الآية ٢٦) - ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾:

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾: كيف ذلك؟ هو لم يزل واقفاً في المدينة، كيف قيل ادخل الجنّة؟

فوراً قيل: ادخل الجنّة، وانتهى الموضوع لسببين: أوّلاً هذا قرآنٌ كريمٌ والمتكلّم هو الله ﷻ، والله ﷻ لا زمان عنده ولا مكان، فيتحدّث المولى ﷻ بصيغة الماضي والحاضر والمستقبل.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾؛ أي في المستقبل، فكلّ شيءٍ عند الله ﷻ في المستقبل وكأنّه الآن، فقد قاموا بقتل الرّجل فقيل: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾، فهو شهيدٌ، وقد قال ﷻ عن الشّهيد: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾ [آل عمران]، فقد قُتِل الرّجل نتيجةً لهذا الإقرار فقيل: ادخل الجنّة فوراً.

﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾: قوله هذا في المستقبل، فهذا كلام ربٍّ وليس كلام عبدٍ.

(الآية ٢٧) - ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾:

المغفرة سبقتْ المكرُمة، والتّخلية تأتي قبل التّحلية، كذلك الحقّ تبارك وتعالى -ولله المثل الأعلى- قبل أنْ يُدْخِل عبده الجنّة يُنقِّيه أوّلاً من الذّنوب، ويطهّره ممّا عَلَق به، وهذه هي التّخلية، ثمّ يُكرمه بالجنّة، وهذه هي التّحلية.

(الآية ٢٨) - ﴿* وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾:

فهؤلاء القوم المكذِّبون قتلوا هذا الرّجل، وهذه القصّة الّتي أراد الله ﷻ لرسوله ﷺ أن يضرب بها المثل لأهل مكّة، فماذا نستفيد منها؟ نستفيد منها لأمر مهمٍّ؛ لأنّ الّذي دافع ونافح وقُتِل واستُشهد ودعا إلى الله ﷻ كما روى القرآن الكريم هو رجلٌ وليس نبيّاً، وكأنّه يقول للنّاس كلّهم: وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى، فالّذي قال وفعل رجلٌ مع أنّه كان هناك ثلاثة مرسلين إلى جانبه، وكلّ ما قصّه الله ﷻ قصّه عن هذا الرّجل، كي يقول: إنّ من يتّبع الأنبياء عليهم السلام فعليه أن يسير على نهجهم، فإيّاك أن تعتقد أنّ الإنسان ملَكٌ، وأنّ الملك والنّبيّ فقط هو الّذي يدافع عن الحقّ، وإنّما الّذي يدافع عن الحقّ أيضاً هم من يتّبعون الرّسل، فهذا الرّجل جاء اختياراً، بينما الرّسل مرسلين من قِبَل الله ﷻ، وهذه نقاطٌ مهمّةٌ، فليس مطلوب منّا فقط

قراءة القرآن الكريم، بل لنتدبّر ولنعلم أنّ واجب كلّ منّا أن يسير باستقامة كما أمرنا الله ﷻ، فعندما نطالب النّاس بقراءة القرآن الكريم فلا بدّ من الوعي لما جاء في كتاب الله ﷻ، وفهم ما أراده الله ﷻ، وأنّه وضع في القرآن الكريم علاجاً لأيّ مرض.

والله ﷻ يوضّح لنا في هذه الآيات بشكلٍ قاطعٍ كيف أنّ الحقّ أمامه من يقف بالمرصاد.

نفهم من سياق الآيات أنّ القوم المكذّبين قتلوا هذا الرّجل المتطوّع، أو أنّه مات بطبيعة الحال فوراً، ومَن ينظر في هذه الآيات يجد بأنّ الله ﷻ جازاهم على تكذيبهم، ويقول ﷻ: إنّ أمر هؤلاء المكذّبين أهون من أنْ نُنزل عليهم جُنداً من السّماء تهلكهم، ومجرّد صيحة واحدة كافية لهلاكهم. فالمعنى:

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي من بعد النّصيحة والعِظَات والبراهين الّتي تطوَّع بها هذا الرّجل.

﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾: لم نُنزل، وما كان ينبغي لنا أنْ نُنزل عليهم جنداً من السّماء؛ لأنّ الأمر أهون من ذلك.

(الآية ٢٩) - ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾:

﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾: أي ما كانت إلّا صيحةً واحدة.

﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾: كلمة: ﴿خَٰمِدُونَ﴾ تدلّ على أنّهم كانوا متحمّسين للكفر، وفي غضبٍ واشتعالٍ على رسل الله ﷻ وعلى الرّجل المتطوّع حتّى قتلوه، فهُمْ في ذلك أشبه بالنّار المتأجّجة، فأخمدها الله ﷻ.

ثمّ يقول الحقّ ﷻ بعد ذلك كلمةً يصحّ أن يقولها كلّ مؤمنٍ يرى مصارع العاصين ونهاية الكافرين الّذين أدركهم الموت قبل أنْ يتداركوا أنفسهم بالإيمان:

(الآية ٣٠) - ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾:

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾: يا: أداة نداء، حسرة: أنت تنادي الحسرة، هذه كلمة تحسُّر، كثيراً ما نقولها تحسُّراً على فوات الخير لمن نحبّ له الخير.

والتّحسُّر هنا على العباد، وهذا هو أوان الحسرة؛ لأنّهم أتتهم الرّسل فاستهزؤوا بهم، ليس فقط المعاصرين للرّسل، وإنّما بوجود كلّ فرد لا يتّبع الرّسل ولا يتّبع الإيمان ومنهج الله ﷻ.

وكأنّه بعد الآيات السّابقة عندما جاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى وما فعلوه معه جاء الختام بهذه الحسرة على العباد؛ لأنّهم لم يتّبعوه.

(الآية ٣١) - ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١﴾:

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم﴾: كلمة ﴿يَرَوۡاْ﴾ من الفعل رأى، وهى تكون بالبصر أو العلم، تقول: رأيت المشهد، فهذه رؤية بصريّة، وتقول: رأيت هذا الرّأي، يعني علمته، لذلك يقول الله ﷻ لنبيّه ﷺ: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨﴾ [إبراهيم]، ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١﴾ [الفيل]، ومعلومٌ أنّ سيّدنا رسول الله ﷺ وُلِد في

عام الفيل، وربّما بعد هذه الحادثة، فلم يَرَ منها شيئاً رؤيةً بصريّةً، بل هي رؤية العلم، فإخبار الله ﷻ أوثق من رؤيته ﷺ بعينيه.

﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾: كان يجب أن يعتبروا بهلاك الأقوام السّابقين لهم، نحن لم نرَ الأقوام السّابقين، فهل رجع أحدٌ منهم وأخبرنا ماذا جرى معهم، كثمود وعاد وأصحاب الرّسّ والمؤتفكة...؟ لم يعد منهم أحدٌ ليخبرنا، لكنّ القرآن الكريم هو الّذي يخبر وهو أصدق القائلين.

﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: لا يستطيع أحدٌ بعد الموت أن يعود ويُخبِر النّاس بما حدث بعد الموت.

(الآية ٣٢) - ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

الجملة صعبة وثقيلة على اللّسان، لا يمكن التّعبير عمّا حوته من معانٍ في جملةٍ واحدة.

وقد جاءت هذه الآية بعد قوله ﷻ: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، لتوضّح أنّ عدم الرّجعة؛ أي في الدّنيا، وإلّا لو لم تكُنْ لهم رجعةٌ لا في الدّنيا ولا في الآخرة، لكان الموت راحةً بالنّسبة إلى هؤلاء المكذّبين، إنّما المراد: لا يرجعون في الدّنيا، أمّا في الآخرة فلا بُدَّ من الرّجوع للحساب عن كلّ كبيرةٍ وصغيرةٍ.

﴿وَإِن﴾: إنْ هنا بمعنى (ما) النّافية.

﴿كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ﴾: ﴿كُلٌّ﴾: بمعنى ﴿جَمِيعٌ﴾، والقرآن الكريم لا يكرّر، وإنّما هي أسرارٌ، ونحن نقول: جاء القوم كلّهم، أو نقول: جاء القوم جميعاً، لكن هناك سرٌّ بأنّ الله ﷻ جمع مشاهد بتوكيد كلّ وجميع، والجمع بينهما

مهمٌّ هنا؛ لأنّ لكلٍّ منهما مدلولاً لا تؤدّيه الأخرى، فكلّهم يعني كلّ فردٍ منهم، ولا يُشترط أن يكونوا مجتمعين سويّاً، إنّما يأتي كُلٌّ بمفرده، كقوله ﷻ: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم]، أمَّا ﴿جَمِيعٌ﴾ فيعني: يأتون مجتمعين كلّهم في أرض المحشر.

﴿مُحْضَرُونَ﴾: من الفعل حضر، وفَرْق بين حضر ومُحْضَر، حضر؛ أي طواعيةً بنفسه وبرغبته، أمّا مُحْضَر؛ أي أُجبر على الحضور.

فهذه الآية صعبةٌ جدّاً؛ لأنّها صعبةٌ في مآلها، فلا رجعة إلى الدّنيا، وهناك رجعةٌ إلى الآخرة، هناك حسابٌ وعقابٌ، هناك جنّة ونار، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس]، فسيأتي كلّ إنسانٍ فرداً، ونكون مجتمعين جميعاً بين يدي علّام الغيوب في أرض المحشر، لذلك قال ﷻ: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، ومن المستحيل أن يعبّر إنسانٌ عن هذه المعاني كلّها بأربع كلمات مقتضبات، فقد تحدّث فيها عن الرّجعة والبعث والحياة الآخرة، وأراد أن يعطينا دليلاً على ذلك نشاهده بأعيننا، حتّى نؤمن بما لا نراه بأعيننا، فقال:

(الآية ٣٣) - ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾: وهذا دليلٌ مُشَاهدٌ يراه الجميع، ولا يستطيع أحدٌ إنكاره، فنحن نرى الأرض الميتة الجرداء القاحلة، فإذا ما جاء المطر اخضرَّتْ ودبَّتْ فيها الحياة واهتزَّتْ وربَتْ، وعلى الإنسان أنْ يأخذ ممّا يُشاهد دليلاً على صِدْق ما غاب عن مشاهدته.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾: الآية: ذكرنا أنّها جاءت في القرآن الكريم بعدّة معانٍ، وهنا تعني الشّيء العجيب؛ أي معجزة.

والمتأمّل في الأرض يجد أنّها آيةٌ في ذاتها، ونعمةٌ من أعظم نِعَم الله تعالى علينا، حتّى وإنْ كانت صخراً لا تنبت، فيكفي أنّنا نستقرّ فوقها.

وإحياء الأرض له عدّة مراتب، فهناك إحياء الأرض الميتة بالماء، وهناك نباتات تنبت من الأرض لا يُستَفاد منها في القوت، مثل العُشْب والحشائش، فهي مظهرٌ من مظاهر حياة الأرض، ونعمةٌ من نِعَم الله ﷻ، والمرتبة الأخرى أن تنبت الأرض النّبات الّذي نقتات به.

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾: الحبوب تمثّل الضّروريّات، وهي من مقوّمات الحياة، وأصل القوت والغذاء الأساسيّ، وأهمّها القمح والشّعير والعدس والحمّص... وتحتوي على البروتينات.

وقد أشار الحقّ ﷻ إلى أهمّيتها، فقال ﷻ: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾ [الرّحمن]، ثمّ أتى إلى الكماليّات الفواكه الّتي يتفكّه بها الإنسان، وهي ليست من الأساسيّات.

(الآية ٣٤) - ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾: نقف هنا عند عظمة الأداء القرآنيّ؛ لأنّ الكلامَ كلامُ ربٍّ، فالقرآن الكريم لمّا تكلّم عن الفاكهة في كلّ الآيات، قال: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة: من الآية ٢٦٦]، فذكر الشّجرة في

النّخيل، وذكر الثّمرة في الأعناب، ولم يذكر ثمرة النّخيل وهي التّمر أو البلح، ولم يذكر شجرة العنب وهي الكَرْم، بينما لو كان إنسانٌ هو المتحدّث لقال: النّخيل والكرم، أو قال: البلح والعنب، والله ﷻ يريد أن يشير هنا إلى أمورٍ مهمّةٍ: أوّلاً بأنّ النّخيل والأعناب يحتويان على السّكّريّات والنّشويّات والفيتامينات الّتي هي من مقوّمات الحياة، وهما مع الحبوب تكفي الإنسان، ثانياً؛ لأنّ شجرة النّخيل تختلف عن شجرة الكرم، فالكرم إذا قطفنا العنب والورق لا يبقى شيءٌ له قيمة، بينما النّخيل دائم العطاء مستمرّ ويبقى مئات السّنين، بل ويعطي في عدّة مواسم، ويمكن أن يُستَفاد منه في أمورٍ كثيرة، والله ﷻ هو الخالق الّذي خلق فهو يعلم ما الّذي ينفع النّاس، لذلك قال: ﴿نَّخِيلٍ وَأَعۡنَٰبٍ﴾، فقدّم النّخيل في آيات القرآن الكريم كلّها؛ لأنّنا نستفيد من النّخلة كلّها، لكن هو يريد أن يتحدّث عن إعجاز ويريد أن تنظر بعينيك، ماذا تجد في النّخلة، ولماذا يكرّر ذكر النّخيل؟ إذا نظرنا إلى النّخلة نجد أنّ فيها شموخ وسباطة والعزق الّذي ينمو عليه البلح، وكيف أنّ هذا التّوازي الموجود، هندسة كونيّة عجيبة لا تخطر ببال البشر أبداً، ولننظر إلى الهندسة الإنسانيّة، فإذا أردنا مثلاً أن نوصل الماء إلى حيٍّ من الأحياء فالهندسة البشريّة تقتضي أن نجعل ماسورة ضخمة، وفي الحيّ نجعل ماسورة أقلّ قطراً من الأولى، ثمّ ماسورة أقلّ للأبنية، وماسورة أقلّ بكثير لكلّ شقّة، فإذا كانت هذه هي هندسة البشر، فما بالنا بهندسة ربّ البشر الّذي هندس النّخلة؟!

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾: أي أحيا الأرض بالماء، والله ﷻ يقول: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: من الآية ٢٢]، ونحن نعلم أنّ الحياة مرتبطةٌ بالماء، قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: من الآية ٣٠]، هنا قال: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾، لماذا لم يقل: (وآية لهم الأرض الميتة أنزلنا عليها ماءً من السّماء فأحيينا بها الأرض)؟ بل قال مباشرةً: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾، كيف أحييناها؟ بالماء، ماء المطر أو ماء الأنهار، أو سلك في الأرض ينابيع، كما قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزّمر: من الآية ٢١]، فهذا الماء يتجمّع تحت الأرض ويتفجّر ينابيع فيخرج أحياناً بحفر الإنسان، ويخرج أحياناً من غير حفر، فلنلحظ هذه الدّقّة، ونحن نقول عندما تتجمّع الغيوم: ستمطر، ولكن لا ننتبه إلى معملٍ عظيم صانعه ربّ العالمين، يتحرّك هذا المعمل عند نزول الماء، فالنّبات والإنسان يعيش على الماء، وقد جعل الله ﷻ ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضيّة بحاراً ومحيطات، والرّبع فقط يابسة، يسكن عليها البشر كلّهم، فجعل ثلاثة أرباع الكرة الأرضيّة في خدمة الرّبع، حتّى يتّعظ الإنسان، ونحن لا نستطيع أن نعيش بدون ماء نشرب منه ونسقي به الزّرع، فمن أين يأتي هذا الماء؟ من البحار، لكنّ ماء البحر مالح، وماء النّهر عذب، فمن أين أتى ماء النّهر؟ من البحر، ولكن كيف جاء من البحر والمحيط والبحر ماؤهما مالح، وفي البحر كمّيّة الماء لا تنقص ولا تزيد؟ هناك مصنع يعمل بلحظات بأمر ﴿كُن﴾ فيكون، فثلاثة أرباع الأرض هي ماءٌ مالح، وهناك موقدٌ إلهيٌّ وهو الشّمس، فتتبخّر مياه البحار بحرارتها وترتفع

فتصادف أجواء باردة فتتكاثف وتمطر ماءً حلواً، تنزل الأمطار ويسلكه ينابيع في الأرض وتتفجّر منه العيون وتأتي منه الأنهار وتعود إلى البحار الكمّيّة ذاتها، وهذه عمليّة دائمة مستمرّة، فالماء يؤخذ من البحر، وقد مدّ الله ﷻ رقعته؛ لأنّنا لا يمكن أن نعيش من غير الماء.

(الآية ٣٥) - ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

﴿مِن ثَمَرِهِۦ﴾: من ثمره؛ أي الحبوب والبلح والعنب وغيرها، أو من ثمر الماء الّذي أنزله الله ﷻ من السّماء وفجّره من الأرض فأخرج به الينابيع.

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ﴾: هناك ثمارٌ تؤكل مباشرةً مثل الفواكه، بينما الخضار كالكوسا والباذنجان واللّوبياء يجب إعدادها وطهيها قبل أن تؤكل، فقال ﷻ: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ﴾، فهناك ثمرٌ جاهز، وهناك ثمرٌ يجب أن تعمل به حتّى يكون جاهزاً لطعام الإنسان.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾: لم يَأْتِ هُنا أمرٌ بالشّكر، ولكنّه سأل سؤالاً: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ بعد كلّ ذلك؛ لأنّ هذه الآيات الّتي نراها، وهذه المصانع الإلهيّة الّتي تعمل لخدمة الإنسان، هي إتقانُ خلقٍ وقدرة خالقٍ ﷻ، الّذي سخّر لنا الماء والأنهار والشّمس والجبال، وأرانا هذه الأرض الميتة الّتي كانت جرداء كيف أحياها بالماء، وأنّك أيّها الإنسان إذا متّ فإنّك سوف تعود إلى تراب وسيتبخّر منك الماء وسيطرح هذا الماء... فهذا هو المثل الّذي أراده الله ﷻ بكيفيّة إحياء الأرض بعد موتها.

(الآية ٣٦) - ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾:

﴿سُبۡحَٰنَ﴾: تعني التّنزيه المطلق لواجب الوجود الأعلى عن أنْ تحكمه قوانين الموجود نفسه.

فالتّسبيح هو التّنزيه لله ﷻ في ذاته وفي أقواله وأفعاله وصفاته ﷻ، لذلك نقول عند كلّ أمرٍ عجيب: سبحان الله، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، فإيّاك أن تقول: أين الله ﷻ؟ ما هو الله ﷻ؟ أين عرش الله ﷻ؟ أين يد الله ﷻ؟ فإنّه ﷻ يقول: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: من الآية ١٠]، ويقول ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، فتأتي كلمة: ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ عندما نتحدّث عن أيّ شيءٍ يتعلّق بصفات الله ﷻ وأفعاله.

وقبل طلوع الشّمس وقبل غروبها وأدبار السّجود؛ أي الصّلوات، نحن مأمورون أن نسبّح الله ﷻ، فنتذكّر من خلال التّسبيح أنّنا ننزّهه، فالله ﷻ عندما يتحدّث عن شيءٍ عظيم يقول: ﴿سُبۡحَٰنَ﴾، كما في قصّة الإسراء والمعراج، فقد استهلّ القرآنُ الكريم سورة الإسراء بقوله ﷻ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [الإسراء: من الآية ١]، فالإسراء بسيّدنا رسول الله ﷺ من مكّة إلى بيت المقدس، ثمّ الصّعود به إلى السّماء السّابعة في جزءٍ من اللّيل يُعَدُّ أمراً عجيباً، فالله ﷻ أسرى به ﷺ بلا زمنٍ، فلم يقل: (أسرى)، إنّما قال: ﴿سُبۡحَٰنَ﴾، حتّى نتذكّر أنّه لا يخضع للقوانين، وأنّ فعل الله ﷻ يختلف عن فعل البشر وإن تشابهت الكلمات؛ كما تقول: الله ﷻ قويّ، وأنت قويّ،

لكنّه ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: من الآية ١١]، فيجب أن ننزّه الله ﷻ في ذاته وفي صفاته، فأنت تُوصف بالغِنى، لكن غناك ليس كغِنَى الحقّ ﷻ، فكلّ أمرٍ يتعلّق بصفةٍ من صفات الله ﷻ يجب أن يكون معها: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

نقول: سبحان الله؛ لأنّه منزّهٌ عن صفات الخلق، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء: من الآية ٤٤]، فالتّسبيح هو أنشودة الكون بمجمله، والله ﷻ منزّه قبل أن ينزهه أحدٌ من خلقه، فالمخلوقات كلّها تسبّح، قال ﷻ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الحشر: من الآية ١]، فهل سبّحَتْ وانتهَتْ؟ بالتّأكيد لا، وقد قال الله ﷻ بآيةٍ أخرى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: من الآية ١]، فما دام الكون كلّه مُسبِّحاً فلا تخرج أنت عن هذه المنظومة، وسبّح معها: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى]، يناديك المؤذّن فتقوم إلى الصّلاة وتقول فيها: سبحان ربّي العظيم، سبحان ربّي الأعلى.

﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾: فإيّاك أن تقول: إنّ فلاناً يخلق، وإن كان بشكلٍ مباشرٍ، كالأمّ والأب، أو طفل أنبوب، فالخلق لله ﷻ.

وهناك نعمةٌ مستمرّةٌ فكلّ ما في هذا الكون مخلوقٌ بشكل زوجٍ لاستبقاء النّوع، فالزّوجيّة موجودةٌ في كلّ شيءٍ، قال ﷻ: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ [الذّاريات].

﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾: عندما نزل القرآن الكريم على قلب النّبيّ ﷺ كان النّاس يعرفون في ذلك الوقت أنّ النّبات فيه ذكرٌ وأنثى، زوج، لكن يا

ترى هل كانوا يعرفون في النّباتات كلّها الّتي نراها أين هو الذّكر وأين هي الأنثى؟ الجواب: لا، لكنّ الله ﷻ يُطلع النّاس على الغيب بالتّدريج، وقد قال ﷻ في آياتٍ أخرى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: من الآية ٢٢]، فهي تحمل حبّ الطّلع، وفي العصور المتقدّمة وبعد مئات السّنين عرفنا أموراً غريبة في المزروعات الضّروريّة للأقوات، كالذّرة والقمح، فليس فيهما عود ذكر وآخر أنثى، إنّما في العود الواحد كعود الذّرة مثلاً نجد في أعلى العود سنبلة تحمل حبّات لقاح الذّكورة وتحتها كوز الذّرة الّذي تخرج منه شعيرات تمثّل الأنوثة، وتتلقّى حبّات اللّقاح الّتي تبعثرها الرّياح من أعلى، سبحان الله لذلك بدأ بالآية بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾، فنحن نكتشف يوماً بعد يوم هذه الحقائق الّتي قالها الله ﷻ وغابت عن النّاس، فلا يوجد نباتٌ إلّا وفيه ذكرٌ وأنثى، وفيه عمليّة تلقيحٍ، فسبحان الّذي خلق الأزواج كلّها ممّا تنبت الأرض.

﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾: قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النّساء: من الآية ١]، فمن نفسٍ واحدةٍ خلق منها زوجها، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الرّوم: من الآية ٢١]، فالبشر خلقهم أيضاً من ذكرٍ وأنثى.

وذكر الحقّ ﷻ الزّوجيّة في: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾، ولم يذكر الحيوان؛ لأنّه ﷻ ذكر الأعلى وهو الإنسان.

﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾: كلّما تقدّم العلم اكتشف أنّ كلّ شيءٍ في الوجود فيه ذكرٌ وأنثى، ففي الكون أشياء كثيرة لا نعلم وجه الزّوجيّة فيها،

وقد نعلمها مستقبلاً مع تَقدُّم العلوم التّجريبيّة، كما حدث مثلاً في الكهرباء، وعرفنا أنّها سالب وموجب، ولا نستفيد من الكهرباء إلّا إذا التقى السّالب بالموجب، كذلك الحال في الذّرّة وغيرها ممّا اكتشفه العلم الحديث، وهناك أمورٌ أخرى، ترك الله ﷻ لنا رصيداً في ذلك، فقال ﷻ: ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي ستعلمون لاحقاً، وإذا نظرتَ إلى هذا الوجود كلّه بعين العلم الفاحصة المجرِّبة المدقِّقة لوجدتَ لكلّ شيءٍ في الوجود زوجين لاستدامة الصّنف، وقد تبيّن أنّ القرآن الكريم قد سبق العلم بهذه الإشارات العلميّة، والقرآن الكريم كتاب هدايةٍ وليس كتاب كيمياء وفيزياء وفضاء، ولكنّ القرآن الكريم لا يقول إلّا الحقّ؛ لأنّ قوانين الكون وضعها الخالق ﷻ.

(الآية ٣٧) - ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾:

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ﴾: آية؛ أي عجيبة، اللّيل والنّهار، اللّيل قسيم النّهار، والزّوج يعني الشّيء ومثله معه، لم يقل: (يا آدم اسكن أنت وزوجتك الجنّة)، بل قال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنَ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: من الآية ٣٥]، فالزّوج هو شيءٌ ومثله معه، لكن يجب أن يتكاملا لا أن يتضادّا، ولكلٍّ منهما مهمّة محدّدة، لذلك أتبع الله ﷻ مباشرة موضوع اللّيل والنهار، فقد كان يتحدّث عن الأرض: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾، والآن: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾، والأرض مكان، واللّيل والنّهار زمان، والإنسان يعيش بالأحداث، والأحداث لا تتمّ إلّا بزمانٍ ومكانٍ، هذا هو

القرآن الكريم الّذي بيّن هذه الأمور العظيمة بهذه الدّقّة، اللّيل والنّهار قسيمان، نصف ليل ونصف نهار، وحلّ الله ﷻ لنا مشكلةً كبيرةً في هذا الزّمان، فقد حلّ لنا كثيراً من القضايا المتعلّقة بالمرأة والرّجل، وأنّ الرّجل والمرأة لا بدّ منهما، فلكلٍّ منهما مهمّة نوعيّة، إنّهما متكاملان مثل تكامل اللّيل والنّهار، وقد أشار الحقّ ﷻ إلى هذا التّكامل في قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [اللّيل]، والله ﷻ يبدأ دائماً باللّيل، فمهمّة اللّيل تختلف عن مهمّة النّهار، فمهمّة النّهار ضياءٌ للعمل والسّعي، ومهمّة اللّيل السّكن والرّاحة، ولا يمكن العمل من غير سكنٍ وراحة، فهناك مهمّات للمرأة ومهمّات للرّجل ويجب ألّا نغفل حقّ المرأة على الإطلاق.

﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾: اللّيل والنّهار تكاتفا وتعاضدا ليكون اليوم.

السّلخ: كَشْط الجلد عن الشّاة، يأتي النّهار رويداً رويداً، هذه الآيات قمّة في الإعجاز، يقول ﷻ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ۝٧١﴾ [القصص]، فكأنّ النّهار حينما يأتي يستر الظّلمة كما يستر جلدَ الشّاة لحمُها، فإذا ما أراد الحقّ ﷻ أنْ يأتي الظّلام يخلع الضّوء، كما نسلخ جلد الشّاة عن لحمها، هندسةٌ كونيّةٌ عظيمة من الله ﷻ، فما علاقة سلخ الشّاة باللّيل والنّهار؟ تحديدٌ دقيقٌ جدّاً؛ لأنّ الأصل في الكون الظّلام، نأتي بآلة تضيء وهي الشّمس فيأتي النّهار فيشكّل طبقةً خفيفةً على اللّيل، الشّاة هي اللّحم والعظم، والجلد طبقةٌ رقيقةٌ عليها، أنت تريد اللّحم والعظم من الشّاة وليس

الجلد، فتأتي عمليّة السّلخ ببطء، حتّى لا تؤذي اللّحم والعظم، فيظهر أصل الشّاة، وهو اللّحم والعظم، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾ [التّكوير]، وحركة العسعسة حركةٌ منتظمةٌ بطيئةٌ تأتي بدقّة، فلنلحظ كيف يدخل اللّيل وينسلخ النّهار.. وهكذا.

﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾: معنى هذا الكلام بأنّ الله ﷻ عندما تحدّث عن الأرض؛ أي المكان، وتحدّث عن الزّمان؛ أي اللّيل والنّهار، وتعاقب اللّيل والنّهار: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران]، والإنسان يعيش بهذه الأحداث، والأحداث لا يمكن أن تجري إلّا إذا كان هناك زمانٌ ومكانٌ، فهذه العتمة الّتي في الكون، وهذه الآلة الّتي تنير هي آياتٌ عجيبةٌ تدلّ على قدرة الله ﷻ، واللّيل يأتي على طبيعته؛ لأنّه الأصل، لذلك قال المولى ﷻ: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾، فالمعنى: نذهب بهذا الغلاف الضّوئيّ الّذي يستر اللّيل فيحلّ الظّلام ليظهر على طبيعته ومن تلقاء نفسه، لذلك جاء الأداء القرآنيّ بـ (إذا) الدّالّة على المفاجأة: ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾، فكأنّ المسألة تلقائيّة لا تحتاج إلى ترتيب.

(الآية ٣٨) - ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾:

﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي﴾: الواو: واو عطف.

الشّمس هي آلة الضّوء، وعندما اخترع أديسون المصباح الكهربائيّ

حدثت جلبة وتكريم، وأنّ هذه لحظة عظيمة، والله ﷻ قبل أن يخلق الإنسان خلق لنا الشّمس مقوّم الحياة الأساسيّة الّتي تنتج لنا كلّ شيءٍ.

وتعاقب اللّيل والنّهار وتعاقب الفصول وخروج الزّرع والنّبات وحياة الإنسان وحركته وبصره كلّ ذلك يتعلّق بشمس الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: من الآية ١٢]، من الّذي يرى؟ هذا الإبصار كيف هو؟ النّهار الّذي يرى وليس الإنسان، بدليل لو كان ظلامٌ فإنّنا لن نرى شيئاً، لا نرى من غير إشعاع، ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، آية النّهار الشّمس، فالشّمس هي المبصرة ولست أنت.

﴿تَجْرِي﴾: تجري؛ أي تتحرّك، وقد تتبّع العلماء هذا الأمر، وإذا هناك مجموعةٌ شمسيّةٌ كاملة تتكوّن من تسعة كواكب، هذه الشّمس تجري وتتحرّك في مسار، والأرض والكواكب تتحرّك حول المجرّة، والمجرّة تتحرّك.. وهكذا.

والشّمس تحتاج إلى قوّةٍ وطاقةٍ ووقودٍ حتّى تجري، قال ﷻ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر]، تبقى تجري إلّا إذا طرأ شيءٌ فأوقفها، وفي علم الحركة قانونٌ اسمه قانون العطالة، وهو أنّ كلّ متحرّك يظلّ على حركته، إلى أنْ تُوقفه، وكلّ ساكنٍ يظلُّ على سكونه إلى أنْ تُعطيه قوّةً فتُحرّكه، وهذا القانون فسَّر لنا حركة الأقمار الصّناعيّة ومراكب الفضاء الّتي تظلّ متحرّكة لفترات طويلة، فكلّ الّذي احتاجته هذه الآلات من الطّاقة هي طاقة الصّاروخ الّذي يحملها إلى أنْ يعبر بها مجال الجاذبيّة الأرضيّة، أمّا هي فتظلّ دائرة بلا طاقة وبلا وقود.

﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾: الشّمس ليس لها مستقرّ، تنتهي إليها الأمور يوم القيامة: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾ [التكوير]، قال العلماء: هي تجري لمستقرّ؛ أي لنهاية.

ثمّ يُذكّرنا الحقّ ﷻ بفضله في هذه الحركة، فيقول:

﴿ذَٰلِكَ﴾: أي ما سبق من حركة اللّيل والنّهار وجريان الشّمس.

﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾: يعني هذا الجريان كلّه، وهذه الحركة إنّما هما بتقدير الله ﷻ.

وكلمة ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ هنا مناسبة تماماً، فالمعنى أنّه ﷻ العزيز الّذي لا تغلبه القوانين؛ لأنّه ﷻ خالق القوانين.

وهناك قراءةٌ أخرى قرأها عبد الله بن مسعود ﷺ: (والشّمس تجري لا مستقرّ لها)، فكيفما قرأت القرآن الكريم تجد الإعجاز.

والسّؤال هنا: لماذا لم يقل: (ذلك تقدير العليم الخبير)؟ أو (الحكيم العليم)؟ نجد في سورة الأنعام قوله ﷻ: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٩٦﴾ [الأنعام]، فما علاقة (العزيز) هنا؟ العزيز هو الّذي لا يُغلب، وهنا المراد العزيز الّذي لا تغلبه القوانين، بل هو يغلب القوانين؛ لأنّنا نعتقد أنّ هناك قانوناً، هذا القانون لا يمكن أن نسير إلّا وفقه، الأمور هكذا بالنّسبة إلى البشر، ولكن بالنّسبة إلى ربّ البشر فهو الّذي يضع القانون ويخرق القوانين متى شاء، وأينما شاء، ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

(الآية ٣٩) - ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾:

بعد أنْ تكلَّم الله ﷻ عن الشّمس وهي آلة الضّوء، تكلّم عن القمر؛ لأنّ له مهمّة يؤدّيها حين تغيب الشّمس.

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾: قدَّرنا سَيْره في منازل ومسافات، هذه المنازل نشاهدها كلّ شهرٍ في حركة القمر: التّربيع الأوّل، والتّربيع الثّاني ثمّ البدر..

﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾: لنتأمّل دِقَّة الأداء القرآنيّ المبني على الهندسة العليا في قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾، فهذه صورةٌ توضيحيّة لمنازل القمر مأخوذةٌ من البيئة العربيّة، فالعرجون هو عذْق النّخلة الّذي يحمل الثّمار، ونسمّيه (السُّباطة)، وهي مكوَّنة من عدّة شماريخ رفيعة، لكن قاعدتها عند اتّصالها بجذع النّخلة عريضة ومفلطحة، هذا العذق يَيْبَس ويضمر كلّما تقادم ويعوجّ كلّما جفَّتْ منه المائيّة، وهذه الصّورة توضّح تماماً حركة القمر حيث يضمر إلى أنْ يتلاشى آخر الشّهر.

وهنا قد بيّن المولى ﷻ منازل القمر وشكل القمر حتّى عاد كالعرجون القديم.

(الآية ٤٠) - ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ﴾: القضيّة تجعل الإنسان يسجد لله ﷻ ويقف حائراً، فهذا القرآن الكريم بيّن كلّ شيءٍ، ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ لقد اكتشف العلم الحديث كثيراً من

الأمور المتعلّقة بهذه الآيات، فالقمر أسرع في حركته من الشّمس؛ لكنّه لا يدرك الشّمس؛ لأنّهما في خطّين متوازيين لا يلتقيان، ولو كانت الشّمس أسرع من القمر لكان في الشّهر الواحد صيفٌ وشتاءٌ، ولاختلط نظام الكون، فالشّمس أبطأ من القمر، وجميع الكواكب تسير، فالشّمس ﴿تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾، فقد كانوا يعتقدون أنّ اللّيل يسبق النّهار، وأنّ الأصل هو اللّيل، فهو قبل النّهار، وبعد الدّراسة لم يجدوا شيئاً من ذلك، فلا اللّيل يسبق النّهار، ولا النّهار يسبق اللّيل، والله ﷻ لا يريد أن يصدم العقل البشريّ، فكيف سيقول للنّاس عند نزول القرآن الكريم: بأنّ الأرض تتحرّك، وأنّها كرويّة، وأنّ الشّمس تتحرّك وجميع الكواكب تتحرّك؟ لن تتقبّلها العقول أوّل ما نزل القرآن الكريم، فقال كلمةً واحدةً فقط تناسب العلم بعد ملايين السّنين: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾، كيف يتمّ ذلك؟ لا يتمّ إلّا إذا كانت هناك حركةٌ، وكانت الأرض كرويّةً، ففي الوقت ذاته يكون قسمٌ منها ليلٌ وقسمٌ نهار، الشّمس تدور حول نفسها، والأرض تدور حول الشّمس، وكلّ شيءٍ مسخّر للإنسان، ولو كانت الأرض بشكلٍ غير كرويّ لكان هناك مكان تبقى فيه الشّمس والآخر لا تأتيه الشّمس، لكن طالما أنّها كرويّة وتدور فمستحيل أن يسبق اللّيل النّهار أو يسبق النّهار اللّيل، بل يبقيان متعاقبين باستمرار، وكلّ ذلك آياتٌ علميّةٌ فالمعلومات الّتي توصّلت إليها العلوم الفضائيّة والتّقنيّة والعلميّة في هذه الآيات.

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾: الكواكب كلّها تسبح في مدارات الفضاء، لماذا قال ﷻ: ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ ولم يقل: (يتحرّكون)؟ هناك فرقٌ كبيرٌ بين السّباحة والحركة، السّباحة هي انتقالٌ سهلٌ على الماء، أمّا الحركة فهناك ثقل، وجاذبيّة أرضيّة بالجوّ، فقال: ﴿يَسۡبَحُونَ﴾؛ لأنّه لا يوجد جاذبيّة أرضيّة، بينما لو قال: يتحرّكون، لاختلف الأمر، يحتاج إلى قوّة وثقل، فعندما أطلقوا الأقمار الصّناعيّة بدأت تسبح، وكلّ ما يُطلَق إلى الفضاء الخارجيّ خارج نطاق الجاذبيّة الأرضيّة يسبح، وكلّ شيءٍ يسبّح بحمد الله ﷻ، وكلّه يدور حول العرش.

(الآية ٤١) - ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١﴾:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمۡ﴾: من العجائب الّتي تدلّ على صنع الله ﷻ.

﴿أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾: هي عجيبةٌ كيف أنّ الله ﷻ أنجى نوحاً عليه السلام في الفلك المشحون.

﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾: السّفينة.

﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾: المملوء.

والمراد: سفينة سيّدنا نوح عليه السلام الّتي كانت معجزة كبيرة للبشريّة، وكلمة الفلك في اللّغة العربيّة تطلق على الجمع وعلى المفرد، فلو كان سيّدنا نوح عليه السلام بنى عدّة سفن لقال: (الفلك المشحونة)، لكنّه قال: ﴿ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾، فهي سفينةٌ واحدةٌ.

﴿أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾: هل حمل ذرّيّتهم أو آباءهم وأجدادهم؟ انظروا إلى

الدّقّة: لم يقل: (حملنا آباءهم وأجدادهم في الفلك المشحون)، بل قال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ لأنّ الله ﷻ عندما يقول فالله ﷻ له كمالاتٌ مطلقةٌ، فالإنسان أوّل ما ينظر إلى الذّريّة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: من الآية ٤٠]، ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: من الآية ٧٤]، ينظر الإنسان بطبعه إلى المستقبل، ينظر إلى الامتداد، إلى البقاء، وبقاء الإنسان في الذّريّة، في الأولاد وليس في الآباء والأجداد، وإنّما الآباء والأجداد هم من السّابقين، وهم من الأصول، ولكنّ الله ﷻ عندما أراد أن يخاطبهم أراد أن يلفت النّظر إلى قضيّة علميّة، ففي كلّ كلمة قانون، ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، نعم، حملنا أولادهم؛ لأنّ كلّ إنسان ذرّيّته مطمورةٌ فيه، من سيّدنا آدم عليه السلام: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: من الآية ١٧٢]، فأراد الله ﷻ أن يمتنّ عليهم فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ لأنّه لو انقطع الآباء والأجداد لقضي عليكم، ولم يكن هناك ذرّيّة، والإنسان جزيءٌ حيٌّ، هذا الجزيء الحيّ من آدم عليه السلام مطمورٌ في ظهر آدم عليه السلام لأفراد الدّنيا كلّها، وهو الّذي ينتقل عبر الأجيال، هذا بيانٌ قرآنيٌّ عظيم.

﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾: هذا كلام ربٍّ وليس كلام عبدٍ، ليس فقط هناك طوفان غطّى الأرض كاملةً وأنقذ الله ﷻ النّاس بهذه السّفينة، ولكن هناك آية في السّفينة، معجزة، حمل الذّرّيّة في الفلك المشحون: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود]، وقد كان قومه يسخرون منه عليه السلام، وقد كان نوح عليه السلام يصنع الفلك الّذي هو

معجزة بأمر الله ﷻ، ولم يأمره فقط بجمع المؤمنين، ولكن أن يحمل معه من كلٍّ زوجين اثنين، حتّى يكون هناك استمرارٌ للحياة، فأخذ من الطّير اثنين، ومن الحيوانات اثنين، ومن النّباتات اثنين، لسنا في صدد قصّة نوح عليه السلام، لكن هذه المعجزة بيّنها الله ﷻ في هذه الآية.

(الآية ٤٢) - ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾: وسائل المواصلات في الماء الّتي يصنعونها في كلّ فترة مثل البواخر وغيرها، وإيّاكم أن تعتقدوا أيّها النّاس أنّها وسائل نجاة، وإنّما هي وسائل مواصلات.

(الآية ٤٣) - ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾: فهي وسائل مواصلات وليست وسائل نجاة، من معجزات الله ﷻ أنّه أعطى البشر هذه السّفن، وأنّه حمل في سفينة نوح ذراري البشريّة، وهذه السّفن ليست لتُنْجِي، لكن هي لخدمة الإنسان، والسّفن العملاقة الآن في دول العالم كلّها تسير في البحار: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: من الآية ٤١]، فقد كانت القوّة بالنّسبة إلى مجراها ومرساها في سفينة نوح عليه السلام، ومع ذلك: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿صَرِيخَ﴾: أي صراخ الاستنجاد، والصّريخ هو الّذي تستصرخه وتستنجد به لينقذك، لكن لنلحظ هنا -سبحان الله- عندما تأتي مشكلة كبيرة فإنّ الإنسان يستصرخ الأقرب إليه، من أبٍ أو أمٍّ أو أخٍ، لكنّه إذا لم

يجد أحداً يقول: يا ربّ، سواء كان في السّفينة أم في الطّائرة أم في أيّ وسيلة مواصلات.

﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾: لا صريخ ولا منقذ ولا إنقاذ، إلّا رحمة من الله ﷻ.

يعني: امتنع المصرخ، وامتنع عنهم أيضاً المنقذ الّذي يتطوَّع فينقذهم، وهذا قَطْعٌ للأمل في النّجاة.

(الآية ٤٤) - ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾: دقّة في القرآن الكريم، فالّذي يُنقِذ هو الله ﷻ، وبدلاً من أن نقول: يا أب، نقول: يا ربّ.

﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾: وهذه النّجاة ليست صَكّاً بالسّلامة الدّائمة والبقاء المستمرّ، إنّما هذه النّجاة متاعٌ إلى حينٍ، إلى أنْ يحلَّ الأجلُ ويُدركك الموت، قال ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: من الآية ٤٩].

(الآية ٤٥) - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾: (إذَا) أداة شرطٍ تفيد التّحقيق، أمّا (إنْ) فتفيد الشّكّ.

﴿لَهُمُ﴾: أي للكافرين.

وجاء الفعل: ﴿قِيلَ﴾ مبنيّاً للمجهول ليفيد العموم، فكأنّ كلّ مؤمنٍ عليه أنْ يقول لكلّ مشركٍ أو كافرٍ: اتّق الله ﷻ، وأنْ ينصح، وأن يأخذ بيد غيره إلى طريق الله ﷻ.

﴿ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ﴾: ما هي التّقوى؟ عرّفها سيّدنا عليّ كرّم الله وجهه عندما سألوه بقوله: "التّقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتّنزيل، والرّضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرّحيل".

نحن نعلم أنّ هناك آيات تقول: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾ [آل عمران]، اتّق النّار يعني اجعل بينك وبين النّار حاجزاً بالعمل الصّالح، لكن عندما نقول: ﴿ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ﴾؛ أي اجعل ما بينك وبين مستقبلك حاجزاً، فالأمام: المستقبل؛ أي اتّقوا ما سوف تصلون إليه من القبر والحساب والعقاب والجزاء.

﴿وَمَا خَلۡفَكُمۡ﴾: يتحدّث عن الماضي، فكيف أتّقي ما خلفي من الماضي؟ الجواب: بأن أستغفر من الذّنوب الماضية.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾: بما أنّ الله ﷻ هو القائل فلا شكّ بأنّ الرّحمة ستأتي من خلال التّوبة من الذّنوب، ومن خلال الاستغفار.

﴿ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ﴾ اتّقوا اليوم الّذي تنزلون فيه إلى القبور، واجعلوا حاجزاً بينكم وبين آثامكم وذنوبكم وما اقترفتموه من ظلمٍ وعدوانٍ ورشوةٍ وسرقةٍ وكذبٍ... اجعلوا هذا الحاجز بالاستغفار والتّوبة من الذّنوب، والعودة إلى الله ﷻ عسى ربّكم أن يرحمكم ﷻ.

(الآية ٤٦) - ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤٦﴾:

الخطاب هنا للكافرين، الجاحدين، عندما نقرأ في كتاب الله ﷻ: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤٦﴾، فيجب أن

نبيّن أنّ هناك آيات كونيّةً، فما تأتيهم آيةٌ من آيات الله ﷻ إلّا أعرضوا عنها، والإعراض هو إعطاء الجنب؛ أي أنّهم لا يريدون أن يعلموا، ولا يريدون أن يؤمنوا بالله ﷻ، ويبيّن المولى ﷻ في هذه الآية حقيقة هؤلاء؛ لأنّهم يُعرِضون عن الإثباتات العلميّة والنّقاش والحوار الصّحيح والدّقيق؛ لأنّ المولى ﷻ لم يطالب الإنسان بالإيمان قهراً، وإنّما أعطى الأدلّة من آياتٍ كونيّةٍ ومن آيات قرآنيّة ومن آيات كمعجزات الرّسل الكرام عليهم السلام، هذه الآيات كلّها أعرضوا عنها، ولم ينظروا إليها.

(الآية ٤٧) - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾: هنا يجب أن ننتبه إلى أمرٍ مهمّ جدّاً، هو موضوع الإنفاق، وهو موضوعٌ يتعلّق بحركة الإنسان في الحياة، والله ﷻ جعل الزكاة ركناً من أركان الإسلام، ولم يأمر فقط بالزكاة، وإنّما أمر بالصّدقات، وهذه فريضة وركن كما قلنا، والأوامر الإلهيّة تأتي على أمرٍ يحبّه الإنسان، قال ﷻ: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر]، وقال جلّ جلاله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: من الآية ٤٦]، وترجمان الإيمان هو بالصّدقة والزكاة وإنفاق المال، فالمال حقٌّ معلّقٌ بالإنسان، فعندما يخرجه ويعطيه للآخر فكأنّه يؤمن إيماناً مطلقاً بأنّ الله ﷻ سيعوّضه وسيزيده، قال ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة]، فالإنفاق

يكون بالزكاة أو بالصّدقة، والأمر الّذي جاء في كتاب الله ﷻ فيما يتعلّق بالزكاة والصّدقات، بالحقيقة لا نجد آية تأمر بالصّلاة إلّا وقُرنت تقريباً مع الزكاة، وقد قال النّبيّ ﷺ: «**وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ**»(١)، فالإنسان يتعلّق بالمال، وقد طلب المولى ﷻ منه أن يقرضه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: من الآية ٢٤٥]؛ أي أن يتعامل مع الله ﷻ، وهو مؤتمنٌ على هذا المال.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾: بعض النّاس يقولون كما قال الكفّار هنا: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾، فيقولون: الله تعالى قادرٌ على أن يطعم الفقير، فلماذا يتركه فقيراً؟ فهذه الحجّة هي حجّةٌ مستمرّةٌ حتّى الآن، فكثيرٌ من النّاس يقولون: لماذا خلق الله ﷻ الفقير والغنيّ؟ وقد مرّت معنا آياتٌ كثيرة بيّنا فيها أنّ الله ﷻ له حكمةٌ في خلقه، وعندما خلق النّاس أراد أن يبلوَ الأغنياء فيما افترضه عليهم من حقٍّ بالنّسبة إلى الفقراء، والله ﷻ في الحديث القدسيّ يقول: «**يا موسى، ما ألجأت الفقراء إلى الأغنياء أنّ خزانتي ضاقت عنهم، وأنّ رحمتي لم تسعهم، ولكنّي فرضتُ للفقراء في مال الأغنياء ما يسعهم، أردتُ أن أبلوَ الأغنياء كيف مسارعتهم فيما فرضت للفقراء في أموالهم**»(٢)، الإنفاق

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الطّهارة، باب فضل الوضوء، الحديث رقم (٢٢٣).

(٢) كنز العمّال: حرف الزّاي، الباب الثّالث: في فضل الفقر والفقراء وما يتعلّق به، الحديث رقم (١٦٦٦٤).

عنصرٌ من عناصر الإيمان المهمّة جدّاً، فالله ﷻ طلبه منّا عندما قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: من الآية ٢٤٥]، فهو ﷻ يقول: خلقت الخلق، الغنيّ والفقير، وأعطيت الغنيّ ومنعت الفقير، لأبلو الغنيّ بالفقير، ولأبلو الفقير بالغنيّ، هذا يكون شاكراً وذاك يكون صابراً، هكذا طبيعة الحياة، حيث لا يمكن إلّا أن يكون قد سخّر الله ﷻ النّاس بعضهم لبعض، ولذلك خلقهم، أن يكونوا مختلفين، وهم يحاولون تغيير الحقائق بقولهم: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾، بالتّأكيد لو أراد الله ﷻ لخلق النّاس جميعاً أغنياء، أو خلق النّاس جميعاً فقراء، ولكنّه من حكمته ﷻ فرض في أموال الأغنياء حقّاً للفقراء، ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾ [المعارج]، لذلك هناك كثيرٌ من الآيات الّتي تحضّ على الإنفاق، كقوله ﷻ: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران]، وقوله ﷻ: ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: من الآية ١٧٧]، أمّا أن يقول الإنسان: أمّا أنا فأُمسِكُ عن إطعام الفقير، ولو أراد الله ﷻ لأطعمه، فالجواب عليه هو قول الله ﷻ: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣﴾ [الماعون]، إذ جعل الله ﷻ عنوان التّكذيب بالدّين هو عدم إعطاء وإطعام المسكين، وزجر اليتيم وعدم إكرامه، لذلك قال النّبيّ ﷺ:

«مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جائعٌ إلى جنبه وهو يعلم به»[1]، فالتّعامل إذاً مع الله ﷻ، ولو شاء لأغنى فلاناً وأفقر فلاناً، وخزائنه لا تنفد جلّ وعلا، وقد قال ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ جِبْرِيلُ عليه السلام يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ، حَتَّى يَنْسَلِخَ، يَعْرِضُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ القُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام كَانَ أَجْوَدَ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ"[2].

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: يحاولون دائماً أن يصوّروا أنّ المؤمن هو الضّالّ، وهو الّذي لا يرى الحقيقة، وهذه هي طبيعتهم عبر الأزمان.

وهناك أمرٌ مهمٌّ يتعلّق بأرزاق النّاس، فالله ﷻ أراد أن يكون الرّزق موزَّعاً بين النّاس، والرّزق ليس هو المال فقط، فالصّحّة رزقٌ، والعقل رزقٌ، والحكمة رزقٌ.. إلخ، والله ﷻ يقول: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذّاريات]، فالله ﷻ ربّ الجميع، وليس ربّ الغنيّ دون الفقير، والله ﷻ هو الّذي يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: من الآية ٢٩]، ولم يقل: (للأغنياء)، فيجب ألّا ننظر إلى الأمر بهذه الحالة الفرديّة، فالله ﷻ خلق الكون بمجمله، وجعل في الأرض معايش، وخلق الإنسان، وعندما خلق الإنسان وخلق آدم وحواء تكفّل برزق النّاس جميعاً، فمنذ بدء البشريّة إلى الآن يجب أن ننظر هل أنّ الله ﷻ أعطى فلاناً وحرم فلاناً أو جعل

---

(١) الجامع الصّغير وزيادته: ج١، الحديث رقم (١٠٤٤٢).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الصّوم، بَابٌ: أَجْوَدُ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَكُونُ فِي رَمَضَانَ، الحديث رقم (١٩٠٢).

الرّزق مضموناً مكفولاً للنّاس كلّهم؟! نعم هناك فقراء وأغنياء، لكن كيف يتمّ توزيع الثّروة البشريّة؟ الثّروة موجودةٌ على وجه الكرة الأرضيّة، فكيف يتمّ هذا التّوزيع بين النّاس؟ وكيف يحتكر بعضهم؟ فما جاع فقيرٌ إلّا بتخمة غنيٍّ، وهذه المعاني جعلها الإسلام عنواناً أساسيّاً في الزكاة والصّدقات والإحسان والعطاء الّذي أمر الله ﷻ به.

ويجب أن نعلم أنّه ليس كلّ غنيٍّ هو آكلٌ لمال الفقير، يقول الإمام عليّ كرّم الله وجهه: "ما جاع فقيرٌ إلّا بما مُتّع به غنيّ"، والله ﷻ ساوى بين النّاس، وإن اختلفوا في حركة الحياة، هذا عَمِلَ، وهذا اجتهدَ فأصبح غنيّاً، فلا نقل: من أين لك هذا؟ إلّا إذا كان سارقاً وناهباً ومحتكراً، وهذا أمرٌ مهمٌّ جدّاً.

(الآية ٤٨) - ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

في السّياق القرآنيّ يتبيّن كأنّ هناك من توعّد هؤلاء بالآخرة، لكنّه لم يذكره؛ لأنّه واجبٌ على كلّ مؤمنٍ أن ينبّه الآخر، ولم يقل: وعيد، وإنّما قال: وعد.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾: متى سيأتي؟ فهم يستعجلون الأمر، ومهما طال عمر الإنسان فإنّ الموت آتيه، ولا ينتظر حتّى قيام السّاعة، وإنّما عندما يموت ينتهي العمل بالنّسبة إليه، فيصبح أمام الحقيقة، قال ﷻ: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: من الآية ٢٢].

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: في قولكم: بأنّ هناك بعثاً وحساباً، وواضح ما في إنكارهم للقيامة من تحدٍّ وعنادٍ واستعجال لها، يقولون: أين هي القيامة الّتي

تتكلّم عنها؟ ائت بها الآن إنْ كنتَ صادقاً، ويظلّ الواحد منهم في هذا الجدل إلى أنْ تفاجئه القيامة.

(الآية ٤٩) - ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

أجابهم عن كيفيّة ما يجري بكلماتٍ سريعة خاطفة لثلاثة مشاهد مباشرة من غير أن يقول لهم: متى، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النّازعات]، فلم يعطهم موعد قيام السّاعة، فهو تبارك وتعالى لم يعط علم السّاعة لأحد، ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب]، أجاب على سؤالهم: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ بقوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾؛ أي يختصمون، ولننظر إلى عظمة القرآن الكريم، هم يستبطئون السّاعة، فيقولون: متى هذا الوعد؟ فيجيبهم إجابات سريعة حتّى في كلمة: يختصمون، فقُلِبت التّاء صاداً، وأدغمت في الصّاد للدّلالة على المبالغة.

﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾: يعني تفاجئهم وهم في جدالهم وخصامهم، والأَخْذُ يدلّ على الشّدّة، قال ﷻ: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: من الآية ٤٢].

(الآية ٥٠) - ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾: فعند بعثة النّبيّ ﷺ قال للنّاس: «كَيْفَ

أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَسَّمَّعُ مَتَى يُؤْمَرُ، فَيَنْفُخُ؟»[1]، فمنذ بُعِث النّبيّ ﷺ وإسرافيل عليه السلام أحنى رأسه والتقم الصّور منتظراً الأمر الإلهيّ، فالأمر بين لحظةٍ وأخرى، وإيّاك أن تنتظر السّاعة؛ لأنّ ساعة الإنسان هي يوم موته، وعندها ينتهي الاختيار وينتهي الأمر ويصبح بين يدي الله ﷻ، فعندما أبهم الله ﷻ الموت عن النّاس فهذا الإبهام هو عين البيان، قال ﷻ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النّساء: من الآية ٧٨]، فأنت محاطٌ بالموت من كلّ جانب، وبأيّ لحظةٍ سيأتي الموت وينتهي الأمر.

﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾: حتّى ولا هذه يستطيعونها.

(الآية ٥١) - ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾: أي البوق الّذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، وهذه هي نفخة البعث، وتسبقها نفخة الصَّعْق الّتي تُميتهم وتخمدهم.

أعطانا ﷻ المنظر والمنظر الثّاني: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزّمر]، هذه مشاهد للكيفيّة وليس للزّمن، نفخ متى وأين وكيف؟ لم يعطِ، فالمشهد هو: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾.

﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾: ما معنى الأجداث؟ ولماذا

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العبّاس رضي الله عنهما، الحديث رقم (٣٠٠٨).

يستخدم القرآن الكريم لفظ الأجداث في مواضع بينما يستخدم لفظ القبور في مواضع أخرى؟ الاستعمال في القرآن الكريم استعمالٌ دقيقٌ.

﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾: هي القبور، وعندما يتحدّث عن الأجداث فإنّه يتحدّث عن ساعة الخروج، بينما عندما يتحدّث عن القبر فإنّه يتحدّث عن المكث، والفارق أنّ كثيراً من النّاس عندما تقوم السّاعة لا يكونون في قبور، فلا تبقى مقابر، قال ﷻ: ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، وقال ﷻ: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر]، وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾ [المعارج]، فعند النّفخ في الصّور تُستَخدم كلمة الأجداث، أمّا القبور فقد ذُكِرَت في ستّ آيات في حالة السّكون والهمود: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحجّ]، ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٢٢﴾ [فاطر]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ۝١٣﴾ [الممتحنة]، ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ [الانفطار]، ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التّكاثر]، ﴿*أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩﴾ [العاديات]، والبعثرة غير الخروج، الخروج فيه حركة، أمّا البعثرة فهي بفعل فاعلٍ.

﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾: يعني يُسرعون.

وأصل كلمة: ﴿يَنسِلُونَ﴾ من نسل الخيوط بعضها عن بعض، نقول: ينسل الثّوب؛ أي تخرج بعض الخيوط من أماكنها من اللُّحْمة أو السُّدَّة، وهكذا يخرجون من التّراب.

(الآية ٥٢) - ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٢﴾:

فإذا ما خرجوا من الأجداث ورأوا الحقيقة الّتي طالما كذَّبوها قالوا: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾: يا: أداة نداء، هم ينادون للويل، فهذا أوانه، فهم الّذين يدْعُون على أنفسهم بالويل والثّبور، لا أحد يقول لهم: ويلكم، إنّما يقولونها لأنفسهم، وهذا بيانٌ للحسرة على ما فاتهم.

وعجيبٌ منهم أنْ يقولوا الآن: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ فعلموا في هذه اللّحظة أنّ الموت لم يكن النّهاية، وإنّما الموت مرقد، وهنا يوجد سكتةٌ لطيفةٌ عند القراءة بين كلمة ﴿مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ وبين ﴿هَٰذَا﴾، فلمَ تأتي السّكتة هنا؟ لأنّهم عندما قاموا مباشرةً أوّل كلمة قالوها: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾، فنسكت، ثمّ يأتي الجواب: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، فمن الّذي أجاب؟ هل الله ﷻ؟ أو أجابوا أنفسهم؟ هل بعضهم أجاب بعضهم الآخر؟ الله ﷻ أعلم، المهمّ أنّ هذا هو الجواب، لذلك جاء مبنيّاً للمجهول، والقرآن الكريم لا يبيّن لنا مَن الّذي أجاب؛ لأنّه قرآنٌ، ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النّساء: من الآية ٨٢].

﴿وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾: أي في البلاغ عن الله ﷻ.

(الآية ٥٣) - ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٥٣﴾:

﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾: لا تتكرّر؛ لأنّ البشر هم الّذين يُكرّرون الفعل،

ومعنى تكراره؛ أي أنّ الفعل الأوّل لم يكُنْ كافياً ولم يَفِ بالغرض منه، أمَّا هنا فالفاعل الله ﷻ.

﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾: لو عُدنا إلى الآية السّابقة: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يس]، التّأكيد الّذي جاء بها، وهنا في قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، إذا هنا فجائيّة، فبمجرّد الصّيحة أُحْضِروا جميعاً رغماً عنهم، ومن غير اختيارهم.

ومُحضر: اسم مفعول من أحضر، يعني: أُجبر على الحضور والمثول بين يدي الله ﷻ للحساب. وفي الآية السّابقة قال ﷻ: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يس]، فزادتْ ﴿كُلٌّ﴾ الدّالّة على شمول الأفراد، وقد يكون شمول الأفراد تتابعاً مجموعة تلوْ الأخرى، لكن هنا يأتون مجموعين ليشاهد التّابع متبوعه، والضّالّ مَنْ أَضلَّه... إلخ.

(الآية ٥٤) - ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

﴿فَالْيَوْمَ﴾: اليوم؛ أي يوم القيامة، وهو اليوم الّذي يحاسَب فيه النّاس جميعاً.

كأنّ الحقّ ﷻ يُطمئِن أهل الإيمان والعمل الصّالح، لا تخافوا من هَوْل القيامة؛ لأنّنا لا نظلم أحداً، قال ﷻ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء]، والجزاء عندنا من جنس العمل:

﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾: هذا ليس الحساب وإنّما أعطى صورةً، ولا تظلم نفسٌ شيئاً، فأيّ إنسانٍ عمل عملاً سيرى جزاء عمله إن خيراً أو شرّاً، قال ﷻ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزّلزلة]. ثمّ يحدّثنا الحقّ ﷻ عن جزاء أصحاب الجنّة، فيقول:

(الآية ٥٥) - ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥﴾:

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾: هذا المشهد المقابل لمشهد الّذين طغوا وتجبّروا، وانتقل إلى مشهدٍ آخر، إلى الّذين آمنوا.

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾: الصّاحب يختار صاحبه ولا يفارقه، فأنت تختار الجنّة أو النّار، فهم أصحاب الجنّة؛ لأنّهم اختاروا الجنّة بعملهم، وقد قال النّبيّ ﷺ: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»(١).

﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾: أي يوم القيامة.

﴿فِي شُغُلٖ﴾: نتوقّف عند هذه الكلمة، فبماذا هم مشغولون طالما أنّهم في الجنّة، وأهل الجنّة يُنَعّمون فيها كما وصف الحقّ ﷻ؟ وإذا خطر ببالهم شيءٌ حضر أمامهم مباشرةً، فما هو الشّغل؟ جاءت هذه الكلمة مبهمة.

﴿فَٰكِهُونَ﴾: يقال: فَاكِه وفَكِه يعني: متلذّذ ومُتنعِّم، ومنها: الفاكهة، فهي ليست من الضّروريّات، إنّما من التّفكُّه والتّلذّذ.

فعندما يتحدّث المولى ﷻ عن الجنّة، فإنّه يتحدّث بما يقرّب للإنسان ما يحدث معه في الدّنيا، يقول ﷻ: ﴿۞مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ [الرّعد: من

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، الحديث رقم (٢٨٢٢).

الآية ٣٥]؛ لأنّها ليست الجنّة بل كالجنّة، والجنّة كما وصفها النّبيّ ﷺ: «**فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(١)، فلا يمكن للإنسان أن يعلم ما فيها إلّا بما أخبر به الله ﷻ.

(الآية ٥٦) - ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾:

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾: حتّى يطمئنّ الإنسان، فالرّجل وزوجته لا يفترقان، وسيكونان معاً في الجنّة بإذن الله ﷻ، وقد قال ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرّوم: من الآية ٢١].

﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾: الظّلّ يكون في الدّنيا من حرّ الشّمس، فكيف يكون في الجنّة؟ فإذا الشّمس كوّرت، وكلّ شيءٍ تغيّر، وأشرقت الأرض بنور ربّها فأصبح الإنسان يعيش مع الخالق ﷻ، مع المسبِّب مباشرةً، فما هي الظّلال الّتي يتحدّث عنها؟ نقرأ قول النّبيّ ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ...**»(٢)، فهي ظلال الله ﷻ؛ أي أنت في فَيْءٍ من الله ﷻ، والفيء يؤدّي إلى راحة الإنسان، لكن نحن نتحدّث عن جنّةٍ فيها ما لا يخطر على بال البشر، لذلك يقرّبها المولى ﷻ.

﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾: الاتّكاء حالةٌ وهيئةٌ للإنسان، فهو: إمّا قائمٌ، أو قاعدٌ، أو متّكئٌ، والاتّكاء أمتع هذه الحالات؛ لأنّ القائم قائمٌ لعمل، والقاعد

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، الحديث رقم (٢٨٢٥).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصّلاة وفضل المساجد، الحديث رقم (٦٦٠).

يقعد لِهَمٍّ يفكِّرُ فيه، فلا هو قادرٌ على القيام للعمل، ولا هو قادرٌ على الاتّكاء للرّاحة، فقوله ﷻ: ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾، يعني تمام الرّاحة لهم، لذلك قال النّبيّ ﷺ: «أَلاَ هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلَالاً اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَاماً حَرَّمْنَاهُ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ»(١).

والأرائك: جمع أريكة.

(الآية ٥٧) - ﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧﴾:

﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ﴾: جاء في سورة الواقعة قوله ﷻ: ﴿وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾ [الواقعة]، أمّا هنا فلم يذكر اللّحم، فذِكْرُ الفاكهة فيه إشارةٌ إلى التّلذّذ والتّنعّم.

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾: أي ما يطلبون، وقال بعضهم: ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾ يعني: لا يدَّخر الله ﷻ لهم دعوة؛ لأنّه ﷻ يعطيهم قبل أن يدعوا.

(الآية ٥٨) - ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾:

﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾: سلامٌ من الله ﷻ، عندما يقول: السّلام؛ أي أضمن لك سلاماً تامّاً واطمئناناً تامّاً منّي ألّا يصيبك مكروهٌ، وهذا معنى السّلام العامّ، وعندما نقول: إنّ الإسلام هو دين سلامٍ، فهو دين

---

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب العلم، باب ما نُهي عنه أن يقال عند حديث النّبيّ ﷺ، الحديث رقم (٢٦٦٤).

عطاءٍ وخيرٍ ورحمةٍ، هذا هو المعنى العامّ للسّلام الحقيقيّ، أهل الإيمان هم أهل السّلام الحقيقيّ، فكيف إذا كان السّلام من الله ﷻ، فهو اطمئنانٌ وأمانٌ وعطاءٌ، والله ﷻ أعطى هذا السّلام ليس مناولةً عن طريق الملائكة، ولكن قولاً مباشراً منه ﷻ، لذلك قال ﷺ: «**بَيْنَا أَهْلُ الجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ، إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ، فَرَفَعُوا رُءُوسَهُمْ، فَإِذَا الرَّبُّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، قَالَ: وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾**»[1]، وتتبيّن أنوار الله ﷻ لأهل الإيمان في ذلك الوقت، فأهل الجنّة مشغولون بأنوار الله ﷻ وبتسبيحه وبحمده ﷻ، مشغولون بسلام الله ﷻ، يقول ﷻ: السّلام عليكم يا أهل الجنّة، فعندما يعطي السّلام منه فإنّنا نفهم السّلام على قدره ﷻ، سبحان الله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: من الآية ١١].

بهاتين الآيتين أجمل المولى ﷻ كلّ ما يتعلّق من نعيمٍ وعطاءٍ ورحمةٍ تظلّل أهل الجنّة بما قدّموا في الحياة الدّنيا، لذلك يقول النّبيّ ﷺ: «**لا يدخل أحدكم الجنّة بعمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلّا أن يتغمّدني الله منه برحمة وفضل**»[2]، وهناك من يقول: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١﴾ [النّجم]، هذا

---

(١) سنن ابن ماجه: افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصّحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهميّة، الحديث رقم (١٨٤).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مسند أبي هريرة ﷺ، الحديث رقم (٧٤٧٣).

الكلام صحيح، فعلى حسب العمل يكون الميزان والحساب والجزاء، لكن أن تدخل الجنّة فهذا برحمةٍ من الله ﷻ؛ لأنّه جعل جزاء العمل الصّالح الجنّة، فهذه هي الرّحمة، فكيف إذا دخل الإنسان الجنّة وهو ينعّم فيها، وامتنّ الله ﷻ بالسّلام: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾.

(الآية ٥٩) - ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩﴾:

بعد أن تحدّث ﷻ عن أصحاب الجنّة، انتقل الحديث إلى الكافرين، وأطلق عليهم صفة الإجرام

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ﴾: أي تميّزوا.

يجب أن يكون هناك علامة فارقة بين المجرمين والمؤمنين.

فبماذا يتميّز أهل الإجرام في ذلك الوقت؟ يجب أن نقرأ في القرآن الكريم كلّه، يجب أن ننتقل من آيةٍ إلى أخرى حتّى نبلغ مرادات كلام الله تبارك وتعالى، والقرآن الكريم هو كنوزٌ وخزائن، كلّما اقتربنا من آيةٍ فُتِحَت لنا خزينةٌ لننظر ونبحث ما فيها من كنوز، نقرأ في سورة طه قوله ﷻ: ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ١٠٢﴾ [طه: من الآية ١٠٢]، لونهم أسود ممزوجٌ بأزرق، ويقول ﷻ: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ٢٤﴾ [القيامة]؛ أي مسودّة، ويقول ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦﴾ [آل عمران: من الآية ١٠٦]، آيةٌ تقول: وجوهٌ باسرة، وآيةٌ تقول: وجوهٌ مسودّة، وآيةٌ تقول: ونحشر المجرمين زرقاً، فعلامة التّميّز واضحة، أمّا أهل الإيمان فهناك أنوارٌ من الله ﷻ انعكست: ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ [التّحريم: من

الآية ٨]، أمّا عندما يقول: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، فيتميّز المجرمون بسواد وجوههم وزرقتها وكلاحتها.

(الآية ٦٠) - ﴿*أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠﴾:

ألم أعهد إليكم يا بني آدم أنّني خلقت النّار من أجل أن أعذّب بها من يكفر، لكنّني قلت لكم.

﴿أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ﴾: أوصيكم.

قلت لكم: ألّا تعبدوا الشّيطان، إنّه لكم عدوٌّ مبين، وعداوته كانت واضحةً، بيّنها الله ﷻ لنا في كثيرٍ من الآيات، وقد ورد في القرآن الكريم أنّه منذ أن رفض إبليس السّجود لآدم عليه السلام والله ﷻ ينبّه بني آدم منه، ويوصيهم ألّا يعبدوا الشّيطان.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾: هنا المولى ﷻ يقرّع هؤلاء، ويقول للنّاس جميعاً: بأنّني قلت لكم، وبيّنت لكم وجود صراطٍ مضروبٍ على جهنّم لا تتوازنون عليه إلّا بقدر تمسّككم بالصّراط المستقيم في الدّنيا، والصّراط المستقيم هو الّذي قعد عليه إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف]، لذلك قال ﷻ: ﴿*أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، وعبادة الرّحمن هي طاعة أوامره، فهي ليست صلاة وصيام وزكاة فقط، وإنّما هي طاعةٌ، فعبادة الشّيطان هي طاعته، فعندما تطيع الشّيطان يصبح معبودك.

المولى ﷻ في هذه اللّحظات الّتي يكون فيها الإنسان قد أصبح أمام الجنّة وأمام النّار يقول للنّاس ويبيّن لهم: إنّه عهد لهم ألّا يعبدوا الشّيطان، ولا يطيعوا شهواتهم، هذا هو الموقف الفاصل.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾: وعداوة الشّيطان ظاهرةٌ منذ البداية.

﴿مُّبِينٌ﴾: واضح.

وذكرنا في سورة الكهف: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]، وقال ﷻ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: من الآية ٣٤]، فإبليس هو العدوّ المبين لنا جميعاً وكان من الكافرين، عادى بني آدم عليه السلام وأقسم على ذلك، ولكنّه لا يستطيع أن يُعادي الله جلّ جلاله، فلا يستطيع أحدٌ أن يُعادي الله وعجل.

(الآية ٦١) - ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾:

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ﴾: أي أطيعوني في أوامري.

﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾: المستقيم: هو أقصر مسافة بين نقطتين.

والصّراط المستقيم يوصلك إلى الجنّة فإبليس أراد أن يبعد بني آدم عن الجنّة بالغواية: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص]، بعزّتك؛ أي باستغنائك عن عبادة خلقك، هذا هو مدخل الشّيطان، فالشّيطان لا يجلس على أبواب الملاهي، وإنّما يجلس عند الطّاعات: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف]، كي يمنع النّاس من الاستقامة، فهدف إبليس هو الاعوجاج.

يبيّن الله ﷻ لنا هنا ما يجري مع أهل الإجرام؛ لأنّه أخذ العهد على بني آدم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف]، وإبليس لا يستطيع أن يدخل على الإنسان إلّا من باب استغناء الله ﷻ عن عبادة خلقه.

(الآية ٦٢) - ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ﴾: أضلّ إبليس كثيراً من النّاس، وعندما يقول المولى ﷻ هنا: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ﴾؛ أي من بني آدم.

﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾: وقد قال ﷻ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: من الآية ١٣]، فكثيرٌ من النّاس ضلّوا بسبب إغواء إبليس.

﴿جِبِلًّا﴾: الجبل: هو شيءٌ قويٌّ وراسخ؛ أي ناسٌ أشدّاء وأقوياء، كالفراعنة، والأكاسرة... وغيرهم من العظماء، فعندما يستخدم المولى ﷻ كلمة ﴿جِبِلًّا﴾، كأنّه يقول: أين فرعون؟ أين كسرى؟ أين قيصر؟ أين هامان؟ أين نمرود؟ أين الأقوياء...؟ أصبحوا كلّهم تحت التّراب، يقول الإمام عليّ كرّم الله وجهه: "لو كُشِف عنّي الحجاب لما ازددت من الله قرباً".

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾: لو استخدمتم العقل وفكّرتم قليلاً بالأدلّة لتبيّن بأنّ إبليس هو العدوّ المبين.

(الآية ٦٣) - ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾: عدّ التّخويفَ من جهنّم وعداً من

المولى ﷻ لا وعيداً، والوعد يكون في الخير، والوعيد في الشّرّ، وقد سَمَّى الله تبارك وتعالى ذلك وعداً؛ لأنّ التّحذير من الشّرّ قبل الوقوع فيه يُعَدُّ خيراً؛ لأنّ الإنسان يستطيع تدارك الأمر، وتصحيح الخطأ، فقوله ﷻ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾؛ أي الّتي هي بانتظاركم، وهي الوعد الحقّ الّذي وعده الله ﷻ لأولئك الّذين جحدوا وكفروا بالله ﷻ وبنعمه.

(الآية ٦٤) - ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

﴿ٱصْلَوْهَا﴾: ادخلوها، واصْطَلُوا بنارها، واحترقوا بلَظَاها.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾: أي يوم الجزاء الّذي يُحاسب به النّاس، أمّا ما كان قبل ذلك فقد مضى ومضتْ معه اللّذّات وجاء الآن وقت الحساب، فبقيتْ التَّبِعات، ولم يعُد أمامهم إلّا النّار يحترقون فيها.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: هذه النّار ليست ظُلْماً، إنّما هي جزاء كفركم وجحودكم بنِعَم الله ﷻ، وهذا تقريعٌ لهم؛ لأنّهم لم يعرفوا نِعَم الله ﷻ ولم يشكروه عليها.

(الآية ٦٥) - ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

﴿ٱلْيَوْمَ﴾: أي يوم القيامة والجزاء.

﴿نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: نضرب عليها فلا يستطيعون الكلام، فالأفواه مَنَاط الكلام، وقبل أن يختم الله ﷻ على أفواههم في الآخرة ختم على قلوبهم في الدّنيا، بالأمس ختم اللهُ ﷻ على القلوب فلا يدخلها إيمانٌ ولا يخرج منها كفرٌ، واليوم ختم ﷻ على الأفواه ومنعهم الكلام، حتّى لا

يعتذرون ولا يستغفرون، فقد مضى وقت الاستغفار، فالمقام هنا مقام حسابٍ لا عمل، فلا جدوى من الاستغفار اليوم، ولا فائدة من الاعتذار، بل انتهى أوان الكلام والمنطق، ولم يعُد للّسان دَوْرٌ، فاليوم تُغْلَق الأفواه وتُقيَّد الألسنة لتنطق الجوارح.

﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: القياس كان يقتضي أنْ يقول الله ﷻ حسب فهمنا البشريّ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ ومثلها: (ونُنْطِق أيديهم ونُشهِد أرجلهم)، لكنّ السّياق القرآنيّ هنا مختلف، فبعد أنْ يختمَ الله ﷻ على أفواههم تُكلِّمنا أيديهم تطوّعاً لا أمراً، وتشهد أرجلهم تطوّعاً لا أمراً، فلم يقل المولى ﷻ للأيدي: تكلّمي، ولم يقل للأرجل: اشهدي، وإنّما تطوّعتْ هذه الجوارح بالشّهادة، مع أنّها هي الجوارح ذاتها الّتي بُوشِرت بها المعاصي والذّنوب في الدّنيا، ومع ذلك فإنّها تشهد عليهم، أمّا والإنسان الآن في الآخرة، وقد تحرّرتْ الجوارحُ من تبعيّتها للنّفس الواعية، وأصبح المُلْكُ كلّه والتّفويض كلّه لله ﷻ، فالآن تتكلّم الجوارحُ بما تريد، وتشهد بما كان أمام ربّ العالمين.

أمّا مسألة الأعمال، فلماذا أسند التّكلّم للأيدي، والشّهادة للأرجل؟ نقول: لأنّ جمهرة الأعمال عادةً تُسند إلى الأيدي، حتّى لو كان المشي وسيلة العمل، وطالما أنّ الأيدي تتكلّم، فكأنّها أصبحتْ مُدَّعيةً تحتاج إلى شاهدٍ فتشهد الأرجل.

أمّا مسألة كيف تنطق الأيدي؟ فالّذي أنطق اللّسان وهو قطعةٌ من لحمٍ ودمٍ قادرٌ على أنْ يُنْطِق باقي الأعضاء، الأيدي أو غيرها، وما دام

الفعلُ لله ﷻ فلا داعيَ للسّؤال عن الكيفيّة، ثمّ إنّ الأيدي فيها من الأعصاب أكثر ممّا في أعضاء الكلام.

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: ولم يقُلْ: بما كانوا يعملون؛ لأنّ هناك فرقاً بين إنسانٍ يُقبل على المعصية لكنّه لا يفرح بها، بل يندم عليها ويعاقب نفسه على ارتكابها، وآخر يعدّ ارتكاب المعصية مكسباً فيفرح بها، ويتحدّث عنها ويتباهى بارتكابها.

ومن حيث التّحقيق اللّغويّ لمادّة (كسب)، فإنّ هذا الفعل يأتي مجرّداً (كسب)، ويدلّ على الرّبح في البيع والشّراء، وعلى العمل يأتي من الإنسان طبيعيّاً، لا تكلُّفَ فيه ولا افتعال، وغالباً ما يُستخدم في الخير.

ويأتي هذا الفعل مزيداً بالهمزة والتّاء (اكتسب)، ويدلّ على الافتعال والتّكلّف، وتُستخدم هذه الصّيغة في الإثم، وقد أوضحنا هذه المسألة سابقاً فقلنا: إنّ الإنسان حين يفعل الخير يأتي الفعلُ منه طبيعيّاً تلقائيّاً، أمّا الشّرّ فيتلصّص له ويحتال؛ ذلك لأنّ الخير هَيّنٌ ليّنٌ سهلٌ مقبولٌ، أمّا الإثم فشَاقٌّ مخجلٌ، فإذا جاءت (كسب) محلّ (اكتسب)، فاعلم أنّ صاحب المعصية ومرتكب الإثم قد تعوَّد عليه وأَلِفه.

(الآية ٦٦) - ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾: أي كما ختمنا على أفواههم ومنعناهم الكلام لو شِئْنا لطمسنا أعينهم يعني: أغلقناها وسوَّيناها، بحيث لا يظهر لها

أثرٌ في وجوههم، وإذا طمسنا على أعينهم فقدوا البصر، فكيف يبصرون وهم يسابقون إلى الصّراط؟ ولقائلٍ أنْ يقول: إذا فقدوا البصر على الصّراط، فقد تكون لهم بدائل وحِيَل تُسعفهم، كأن يتحسّس طريقه بعصا مثلاً، أو يجد مَنْ يأخذ بيده ويرشده، فالحقّ ﷻ يُطوِّقهم من نواحيهم كلّها، ويقطع أملهم في النّجاة، فيقول:

(الآية ٦٧) - ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾: فالأمر لا ينتهي عند العمى والطّمس على الأعين، إنّما هناك ما هو أشدّ، أنْ يمسخهم في أماكنهم ويجمّدهم فيها، فلا يستطيعون حراكاً.

والمراد بالمسخ؛ أي يجمدوا في مكانهم فلا يتحرّكون، أو مسخناهم يعني: حوَّلنا صورهم إلى صورٍ قبيحةٍ، إذلالاً وإهانةً لهم.

والمعنى الأوّل أوجه؛ لأنّه ﷻ قال بعدها:

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾؛ لأنّهم تجمّدوا في أماكنهم، فلا حركة لهم لا إلى الأمام بالمضيّ في الطّريق الجديد الّذي هم مُقبلون عليه، ولا حتّى العودة في الطّريق الّذي أتوا منه وألِفُوه.

(الآية ٦٨) - ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾: الحقّ ﷻ قد أعذر بأنّه أنذر،

وأعذر؛ لأنّه قال لهم: لا تعبدوا الشّيطان، وبيَّن عداوته، وقال: اعبدوني واسلكوا صراطي المستقيم، فليس لهم عذرٌ حين كفروا بالله ﷻ وأطاعوا الشّيطان وعبدوه، لكنّهم قد يعتذرون من ناحيةٍ أخرى فيقولون: يا ربّ، أنت أخذتنا، ولو عشْنا لاهتدينا وعُدْنا إلى الصّراط المستقيم، فيردّ الله ﷻ عليهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: من الآية ٣٧]؛ أي قد عمَّرناكم عمراً طويلاً يكفي للتّذكُّر والعودة فلم تعودوا، ثمّ إنّ التّعمير يُورِث الضّعف والوَهَن وعدم القدرة، فأنت أوّل الحياة عندك فتوّة وقوّة ونشاط بدنيّ وذهنيّ، لكن مع الكِبَر تضعف البنية، وتقِلُّ القوّة العضليّة والعقليّة، ويعود الإنسان إلى الضّعف الّذي بدأ به وهو طفلٌ صغيرٌ، وكما قال ﷻ: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النّحل: من الآية ٧٠]، فإذا كنتم لم تعودوا ولم ترعووا في فترة القوّة وسلامة العقل والتّفكير، أتعودون في فترة الهَرَم والضّعف والنّسيان؟ لذلك يقول هنا الحقّ ﷻ:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾: نطيل عمره ونَمُدّ له فيه.

﴿نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾: الانتكاس: العودة إلى الوراء، والرّجوع إلى ما كنتَ عليه أوّلاً، فَطُول العمر يعود بالإنسان إلى مرحلة الطّفولة الأولى، فهو نكسة في حقّه حين يصير شيخاً هرماً لا يستطيع الحراك ولا الكلام، وتأخذ ذاكرتُه في الضّعف فينسى ويخرف، فهو كالطّفل تماماً يحتاج مَنْ يحمله ويُطعمه ويُزيل عنه الأذى.. إلخ، فهل في هذه الحال عودة؟ وهل ينفع معها تفكُّرٌ وتدبُّر؟

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾: يعني أين عقولكم في هذه المسألة؟ والحقّ ﷻ

يسوقها بأسلوب الاستفهام، ولا يأتي بها على سبيل الإخبار ليجيبوا هم ويُقِرُّوا على أنفسهم بعدم التّعقُّل.

(الآية ٦٩) - ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾: أي نحن، لا المجتمع ولا البيئة الّتي يعيش فيها؛ لذلك كانت الأمّيّة في رسول الله ﷺ شرفاً؛ لأنّه لو لم يكُنْ أمّيّاً لكانت ثقافته من الخَلْق، أمَّا أمّيّته فتعني أنّه أخذ ثقافته وعلمه من الله ﷻ، والحقّ ﷻ يقرّر هذه الحقيقة بقوله:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾: لَكُنَّا علّمناه غير الشّعر، فرسول الله ﷺ مُعلَّمٌ من ربّه ﷻ، لم يأخذ شيئاً من البشر، وقد يُظَنُّ أنّ الله ﷻ لم يُعلِّمه الشّعر؛ لأنّ الشّعر يحتاج إلى ثقافةٍ لغويّةٍ وعِلْمٍ بالأوزان والقوافي، ولا بُدَّ له من الحِسِّ المرهف والأذن الموسيقيّة إلى آخر هذه الأدوات الّتي يحتاجها الشّاعر، وربّما لم تتوفّر هذه الأدوات لرسول الله ﷺ كما أنّها لم تتوفّر لكثيرين غيره، فيردّ الله ﷻ هذا الظّنّ، ويقول:

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾: يعني لم نُعلّمه الشّعر لنقصٍ في إمكانيّاته، فلو أراد أنْ يقول شعراً لَقَالَ الشّعر على أحسن مَا يُقَال، لكن لا ينبغي له ذلك؛ لأنّ مهمّة الرّسول خلاف مهمّة الشّاعر، فأغلب الشّعر يكون في الخيال، فإذا دخل في الخير ضَعُفَ ولَانَ؛ ذلك لأنّ طبيعة الشّعر أن ينطلق ويُحلِّق في الخيال، وأن يقول الشّاعر ما يحلو له أيّاً كانت غايته، أمّا أصحاب

الرّسالات فهم أصحاب القيم والأخلاق، ولا يمكن أنْ يحصروا أنفسهم في شعرٍ أبداً، وسيّدنا حسّان بن ثابت ﷺ، كان شاعراً مجيداً في الجاهليّة، فلمّا أسلم أصبح يلتزم بما يأمره به النّبيّ ﷺ، فقوله ﷻ: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ دفع عن رسول الله ﷺ الاتّهام بأنّ طبيعته ليست شاعريّة، أو أنّه غير مُرْهف الحسّ، وأنّ أذنه غير موسيقيّة، إلى آخر هذا الهراء، وكيف يُتَّهم بهذا مَنْ علَّمه الله جلّ وعلا؟ والنّبيّ ﷺ جاء بالقرآن الكريم، وهذا ما امتاز به ﷺ: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النّجم]، ومهمّة الرّسول ﷺ بلاغ القرآن الكريم عن الله ﷻ.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾: (إن) هنا بمعنى (ما) النّافية، يعني: ما هذا القرآن إلّا تذكيرٌ لمن يعقل.

﴿وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾: أي بيّنٌ واضحٌ يُتلَى، وقد يكون له نَغَمٌ ألذّ في أذن الوَرِع من الشّعر، لذلك بعض النّاس يسمع القرآن الكريم فيأخذه إعجابٌ، ولو سألته تجده لا يعرف ما يحدث له؛ لأنّ الّذي يتكلّم هو الله ﷻ، فالله تعالى يتكلّم بالكلام الّذي يؤثّر ويستميل المخلوق لله الّذي ما يزال على فطرته الّتي فطر النّاس عليها، فإنْ خرج عن هذه الفطرة لم يؤثّر فيه القرآن الكريم هذا التّأثير؛ ذلك لأنّ القرآن الكريم واحدٌ، أمَّا الفطرة المستقبلة فتختلف، والحقّ ﷻ يشرح لنا هذه المسألة في قوله ﷻ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾ [محمّد: من الآية ١٦]، فأمره الله ﷻ أنْ يردّ عليهم: ﴿قُلۡ هُوَ﴾ [فصّلت: من الآية ٤٤]؛ أي القرآن، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ [فصّلت: من الآية ٤٤]؛ ذلك لأنّ فاعلَ الشّيء غير القابل له، فالله ﷻ جعله رحمةً وهدىً

للمؤمنين، فمَنْ تلقّى كلام الله ﷻ بفطرةٍ سليمةٍ فهمه وتأثّر به، ومن لا يستقبل القرآن الكريم بصفاء قلبٍ فهو عليه عمىً، ويكون على قلبه ران، فلا يفهم عن الله ﷻ ولا يتأثّر بكلامه.

(الآية ٧٠) - ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾:

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾: نعم، سمّاهم أحياء، لكنّهم أحياء الحياة المادّيّة الّتي تنتهي بالموت، إنّما هناك حياةٌ أخرى بالقيم الرّوحيّة، وهذه لا يظهر أثرها إلّا بعد الموت، والنّاس جميعاً يشتركون في الحياة المادّيّة؛ لكن في الإنسان الّذي يؤمن تكون الرّوح -الّتي تحيا بها المادّة- تتغذّى بالقيم، وحياة القيم ترتقي بالإنسان لتعطيه قيمةً في الآخرة، فإذا شاء الله ﷻ أُعْطِي الإنسانُ حياةً موصولةً كما أُعطي سيّدنا يحيى عليه السلام، فلمّا دعا سيّدنا زكريّا عليه السلام ربّه ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم]، فأجابه الله ﷻ: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم]، فبشَّره الله جلّ جلاله بالغلام، وسمّاه اسماً يدلّ على أنّه سيعطيه حياةً موصولةً، وهذا لا يكون إلّا للشّهداء؛ لذلك مات سيّدنا يحيى عليه السلام شهيداً.

﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي يستحقّ لهم العذاب؛ لأنّهم لم ينتفعوا بالإنذار.

(الآية ٧١) - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾:

هنا نقلهم الحقّ ﷻ إلى مجال المادّة الّتي لا يستطيعون إنكارها:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾: الرّؤية يصحّ أن تكون رؤيةً بصريّةً أو رؤيةً علميّةً.

﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾: قوله ﷻ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ينفي المشاركة، يعني: هذه صنعتنا وخَلْقنا لم يشاركنا فيه أحدٌ، ولم يساعدنا فيه أحدٌ، بل هو خَلْق الله ﷻ وحده.

﴿أَيْدِينَآ﴾: عندما يقول ﷻ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: من الآية ١٠]، أو ﴿أَيْدِينَآ﴾ فعلينا أن ننزّهه ﷻ عن الشّبيه والمثيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، فلا تشبيه لله ﷻ مع الخلق لا بالذّات ولا الصّفات ولا الأفعال.

﴿أَنْعَٰمًا﴾: هي الأنعام الّتي ذُكرت في سورة الأنعام: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام]، وهي البقر والإبل والغنم والماعز، وسمّيت أنعاماً؛ لأنّها النّعمة البارزة في أشياء متعدّدة، ننتفع بها في حياتنا، فنأخذ منها الصّوف والوبر والجلود والألبان، ونحمل عليها الأثقال، وهذه كلّها نِعَمٌ واضحة في البيئة العربيّة.

ثمّ إنّ خَلْق الأنعام في ذاته نعمةٌ، وقوله ﷻ: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ نعمةٌ أخرى؛ لأنّ هناك حيوانات أخرى متوحّشة لا تُملَك إلّا بالصّيد والقوّة، وهي قليلة النّفع إذا ما قُورِنت بالمستأنسة الّتي ينتفع بها الإنسان، فيسوقها ويركبها ويحلبها.

(الآية ٧٢) - ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾: ثمّ نعمة التّذليل، وإلّا فإذا خلقها الله ﷻ ولم يُذلِّلها ما استطاع الإنسانُ تذليلها، ولا الاستفادة منها، فالجمل مثلاً مع ضخامة حجمه وقوّته، إلّا أنّ الطّفل يسوقه ويُنيخه ويركبه، كيف؟ لأنّ الله ﷻ ذَلَّله وسخَّره، أمّا الثّعبان فمع صِغَر حجمه إلّا أنّنا نخاف ونهرب منه؛ لأنّ الله ﷻ لم يُذلِّله لنا، بل البرغوث في الفراش يشاغب على الإنسان ويُقلِقه، وليس للإنسان سلطانٌ عليه، فخَلْق هذه الأنعام في ذاته نعمةٌ، وتملّكها نعمةٌ، وتذليلها نعمةٌ، وهذه النِّعم للمؤمن والكافر على السّواء؛ لأنّها من عطاء الرّبوبيّة، فكان عليهم أن يسألوا أنفسهم: كيف نكفر بالله ﷻ وهو يوالي علينا هذه النِّعَم كلّها؟ وليت الأمر يقف عند كفرهم، إنّما يتعدّى ذلك حين يمنعون الرّسل عليهم السلام من نَشْر دعوتهم.

﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾: أي ما يُركَب من الدّوابّ، ورَكُوب مثل قولنا: شاة حَلُوب؛ أي تُحلَب.

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾: أي من لبنها وهي حيّةٌ، واللّبن نأخذ منه الجبن والزّبدة.. إلخ.

(الآية ٧٣) - ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ٧٣﴾:

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ﴾: مشارب جمع مشرب، والمراد القِرْبة الّتي كانوا يشربون بها، وتُصنع من جلود هذه الحيوانات، أو يُراد بالمشارب ما يُشرَب من ألبانها، واللّبن وإنْ كان يُشرب من الأنثى إلّا أنّ الذّكر سببٌ فيه، فلولا أنّها حملتْ ما كان منها اللّبن، ثمّ تُختَم هذه النِّعَم بقوله ﷻ:

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾: هكذا بأسلوب الاستفهام ليجيبوا هم، فالله ﷻ لا يقول لهم: اشكروني على هذه النِّعم، إنّما يقرّرهم: أهذه تستوجب الشّكر أم لا؟ ثمّ لو شكرتم فسوف تتعرّضون لعطاءٍ آخر وزيادة: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ﴾ [إبراهيم: من الآية ٧]، فكان يجب عليهم أن يشكروا الله ﷻ على نِعَمه، وأن تدعوهم هذه النِّعَم إلى الإيمان بهذا الإله المُنعِم الّذي يُوالي عليهم نِعَمه ظاهرةً وباطنةً، ولِمَ لا؟! والإنسان عبدٌ لمن يُحسِن إليه، فالله ﷻ أنعم علينا بهذه النّعم كلّها، أفلا يستحقّ أنْ يُعبد ويُشكر؟! وليت الأمر ينتهي بهم عند حَدِّ عدم الشّكر، إنّما يقول القرآن الكريم عنهم:

(الآية ٧٤) - ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ٧٤﴾:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾: عجيبٌ أن يحكي القرآن الكريم عنهم هذا بعد أن شرح الله ﷻ لهم آياته الّتي تثبت وجوده الأعلى ووحدانيّته الكبرى، ففي الآفاق حول الإنسان آيات، وفي نفسه آيات، فمَنِ انصرف عن الأولى أو غفل عنها، فكيف يغفل عن الأخرى، وهي في نفسه وذاته الّتي لا تفارقه، لذلك قال ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ

يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصّلت: من الآية ٥٣]، ومع ذلك: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾؛ أي عبدوها من دون الله ﷻ، لماذا؟

﴿لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ﴾: صحيحٌ أنّ الإنسان يتّخذ إلهاً لينصره في شدّته، لكن إذا كان هذا الإله الّذي يُرجَع إليه في الشّدّة هو الّذي يحتاج مَن يُصلحه إنْ كسرَتْه الرّيح، أو أطاحت به العوارض، فكيف يُتَّخذ إلهاً؟! لذلك نجد سيّدنا إبراهيم عليه السلام عندما حطّم الأصنام سأله قومه: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣﴾ [الأنبياء]، لذلك يردّ الله ﷻ عليهم بقوله:

(الآية ٧٥) - ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ٧٥﴾:

﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ﴾: فهم لا ينصرون عابديهم، إنّما العابدون هم الّذين ينصرونهم، ويوم القيامة سيجمعهم الله ﷻ معاً، لا يُحشر العابد من غير المعبود لتكون المواجهة، فيُحشَر الجميع معاً، كما قال ﷻ: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ٢٦﴾ [الصّافّات]، وقال جلّ جلاله: ﴿٭ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصّافّات]؛ أي أحضروهم معهم في النّار، العابد والمعبود، والمعنى أنّ هذه الأصنام ستكون وقوداً للنّار الّتي يُعذَّب بها عابدوها.

وبعد ذلك يعود السّياق القرآنيّ إلى رسول الله ﷺ:

(الآية ٧٦) - ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٦﴾:

يُسلّي الحقّ ﷻ رسوله ﷺ ويُطيّب خاطره، ويبيّن له وهو في شدّةٍ

بأنّ سنّته ﷻ في الرّسل جميعاً أنّه ﷻ ما أرسل رسولاً وخذله أبداً، وأنّ النّاس سيستنكرون ويجحدون، وما كانت الشّدّة في رحلة وموكب الرّسالات إلّا تصفيةً لنفوس المؤمنين، وتمحيصاً لهم، وتصحيحاً للعقيدة، حتّى لا يبقى إلّا المؤمن الحقّ الّذي يتحمّل مسؤوليّة الرّسالة والدّفاع عنها، لذلك يقول ﷻ مخاطباً نبيّه ﷺ:

﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾: لا تحزن يا محمّد، والحزن: أسف النّفس على عدم تحقيق ما يتمنّى الإنسان وطُروء ما يفسد، فَإِنْ حَزِن رسول الله ﷺ وانقبضَتْ نفسه، يُسلّيه الّذي أرسله؛ لأنّه ﷻ يحصي عليهم كلّ شيءٍ، ويعلم ما يُسِرُّون وما يعلنون.

﴿إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾: لها معنيان:

١- الّذين واجهوا رسول الله ﷺ كانوا قسمين: القسم الأوّل واجهه بشجاعةٍ، فأعلن بلسانه ما في قلبه من أنّه لا يؤمن به، وهؤلاء هم الكَفَرة، والقسم الثّاني آمن بلسانه وكتم الكفر في قلبه، وهؤلاء هم المنافقون، فمعنى: ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾؛ أي من النّفاق، ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ من الكفر.

٢- أو: ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ من الإيمان الحقيقيّ بك، وأنّك رسولٌ وأمينٌ وصادقٌ، ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ من الكفر، بدليل قوله ﷻ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النّمل: من الآية ١٤]، بدليل أنّهم لم يُكذّبوا القرآن الكريم، ولم يعترضوا عليه، إنّما اعتراضهم أنْ ينزل على سيّدنا محمّد ﷺ بالذّات، لذلك قالوا كما حكى عنهم القرآن الكريم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ٣١﴾ [الزّخرف: من الآية ٣١]، لذلك قال ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ

﴿قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: من الآية ٦٥]، بعضهم فَهِمَ أنّ عبارة: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ هي قول الكافرين، لكن كيف يقولها الكافر؟ إنّما قالها الله ﷻ تذييلاً لقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ لماذا؟ لأنّ العزّة لله ﷻ جميعاً، وهم ليس لهم أيّ قيمةٍ.

بعد أن تكلّم الحقّ ﷻ عن آياته في الآفاق، في الأرض وفي الشّمس والقمر والفُلْك والدّوابّ والأنعام، يتكلّم ﷻ عن آياته في النّفس الإنسانيّة، فإذا كانت الآيات في الآفاق من حولهم لم تلفتهم إلى الله ﷻ، فهذه هي آياته في ذات أنفسهم الّتي لا تفارقهم:

(الآية ٧٧) - ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: بمعنى يعلم؛ لأنّ الإنسان لم يَرَ عمليّة الخَلْق في نفسه، فإنْ قلتَ: فمَنِ الّذي أعلمه؟ ومَنِ الّذي عرَّفه أنّ الله ﷻ هو الخالق؟ قالوا: عرف الإنسانُ هذه الحقيقة؛ لأنّ في الكون كمالاً لم يدَّعه أحدٌ من الخَلْق، ونلحظ على سياق هذه الآيات أنّ الحقّ ﷻ قال في الآيات السّابقة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ [يس]، وهنا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فخاطب الإنسان، ولم يخاطب الجماعة، قال المفسّرون: لأنّ هذه الآية نزلت في أُبَيّ بن خلفٍ، فعَنْ أَبِي مَالِكٍ: أَنَّ أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ جَاءَ بِعَظْمٍ حَائِلٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَفَتَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ: فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَيَبْعَثُ اللَّهُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَمَّ؟ قَالَ: «نَعَمْ،

يَبْعَثُ اللَّهُ هَذَا ثُمَّ يُمِيتُكَ ثُمَّ يُحْيِيكَ ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ»[1]، أو يُراد بالإنسان مطلق الإنسان، فهي لكلّ مُكذِّب بالبعث ممَّنْ هم على شاكلة أُبيٍّ.

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾: العلم التّجريبيّ لم يصل إلى شيءٍ في مسألة الخَلْق هذه إلّا مؤخّراً، ويحاول على استحياء كشف بعض أسرار خَلْق الإنسان ممّا لم نكُنْ نعرف عنها شيئاً من قبل، والنّطفة هي الجوهر والميكروب أو الجرثومة الفعَّالة الّتي تسبّب الإخصاب حين تصل إلى البويضة، وهذه النّطفة تسبح في سائلٍ هو المنيّ وتعيش فيه؛ لذلك قال ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة]، وقد أثبت العلم التّجريبيّ الحديث أنّ النّطفة هي المسؤولة عن تحديد الذّكورة أو الأنوثة، والبويضة ما هي إلّا وعاء فقط، فلا دَخْلَ للمرأة في هذه المسألة، بدليل قول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة]؛ أي من النّطفة، والنّطفة ميكروب متناهٍ في الصِّغر، لا يُرَى إلّا بالمجهر، ورحم الله ﷻ العقّاد الّذي قال كلمةً موجزةً تصوّر هذا الصِّغَر، فقال: إنّ أنسال العالم كلّه -يعني النُّطَف الّتي كوَّنتهم- يمكن أن توضع في نصف كُشتبان الخياطة، فسبحان الخالق الّذي يُخرِج من هذه النّطفة المتناهية الصِّغر إنساناً كاملاً، ويُنشىء منها العظام الصّلبة والعضلات نصف الصّلبة والرّخْوة، وأنشأ منها الغضاريف والأعصاب والدّم السّائل والمخ.. إلخ، هذا في الجسم المادّيّ، والأعجب منه ما يحتويه هذا الجسم من العقل الّذي

(١) مسند الحارث: كتاب التّفسير، سورة يس، الحديث رقم (٧١٩).

يفهم، واللّسان الّذي ينطق ويتذوّق، والعين الّتي ترى، واليد الّتي تبطش، والأنف الّذي يشمّ، والأنامل الّتي تلمس، والرِّجْل الّتي تسعى، هذه كلّها من النّطفة، هذا الميكروب الّذي لا يُرى بالعين المجرّدة، هذه النّطفة الّتي عبَّر عنها القرآن الكريم بالماء المهين. وبعد أنْ خلق الإنسان من هذه النّطفة ومن هذا الماء المهين فوجئنا بأنّه:

﴿خَصِيمٌ﴾: يعني عدوّ لدود.

﴿مُّبِينٌ﴾: يعني يلدّ في العناد، يبين عن مواهب العداء عنده إبانةً واضحة، والإنسان لا يكون مُبيناً لغيره إلّا إذا بَانَ الشّيء في نفسه هو؛ لأنّ فاقد الشّيء لا يعطيه، فالمدرّس الفاشل هو الّذي لا يستطيع أن ينقل المعلومة لتلاميذه؛ لأنّ المعلومة غير واضحة عنده، ولو كانت واضحة في ذهنه لاستطاع أنْ ينقلها بأيِّ أسلوب، فالمعنى ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي يُحسِن الإبانة عَمَّا في نفسه.

وعجيبٌ أنّ هذا كلّه كامنٌ في النّطفة، وعجيبٌ أيضاً أن ينقل الإنسانُ هذه الخصومةَ من ذات نفسه، ومن خصومته لأعدائه إلى خصومة ربّه وخالقه، لذلك قال ﷻ بعدها مُصوِّراً هذه الخصومة لا مع أُبَيٍّ بن خلف سبب نزول الآيات، إنّما مع كلّ مَنْ هو على شاكلة أُبَيٍّ:

(الآية ٧٨) - ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾:

تحدَّثنا عن ضرب المثل سابقاً وقُلْنا: الضّرب إيقاع جسمٍ على جسمٍ بعنف، ويُشترط فيه أن يكون الضّاربُ أقوى من المضروب، وإلّا كانت

النّتيجة عكسيّة، ومن ذلك قول الرّافعيّ رحمه الله:

أَيا هَازِئاً مِنْ صُنُوفِ القَدَرِ بنفْسِكَ تُعنف لَا بالقَدَر
وَيَا ضَارِباً صَخْرةً بِالعَصَا ضَرَبْتَ العَصَا أَمْ ضرَبْتَ الحَجَر؟

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾: أي أبيّ بن خلف، والمثل الّذي ضربه أنْ أخذ عَظْماً قد بَلِي، وراح يُفتِّته أمام رسول الله ﷺ وهو يقول: أتزعم يا محمّد أنّ ربّك سيحيي هذا بعد أن صار إلى ما ترى؟ وإنْ كانت هذه الآيات نزلت في أُبيٍّ بن خلف، إلّا أنّها لا تقتصر عليه، إنّما تشمل كلّ مُكذِّب بالبعث، مُنكر لهذه القضيّة.

﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾: يعني لو تذكَّر خَلْقه هو، وتأمّل في ذات نفسه وجد الدّليل على ما يُكذِّب به؛ لأنّ الله ﷻ خلقه من العدم، فصار له وجود، فإذا مات بقيتْ منه هذه البقايا الّتي يُفتِّتها منثورة في الأرض، ومعلوم بحسب ما تفهمه العقول أنّ الإيجاد من موجود أهون من الإيجاد من العدم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرّوم: من الآية ٢٧]، فالحقّ ﷻ في هذه الآية يخاطبنا على قَدْر عقولنا ووَفق منطقنا، وإلّا فلا يُقال في حقّه تعالى: هَيِّن وأهون، ولا سهل وأسهل، هذا يُقال في حقّ البشر فحسب، لكنّه تقريبٌ لأذهاننا.

﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾: حينما ألقى هذا السّؤال على الكافرين المكذِّبين بالبعث قالوا: لا أحد يستطيع أنْ يُحيي الموتى، لماذا؟ لأنّه يقيس المسألة على عَجْز القدرة في البشر، لا على طلاقة القدرة في الخالق ﷻ، والعجيب أنّ الله ﷻ يُثبت للإنسان صفة الخَلْق، فيقول: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ

﴿ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: من الآية ١٤]، والإنسان ينكر ويُكذِّب بقدرة الله ﷻ في الخَلْق، فإذا كان ربّك لم يَضِنّ عليك بأنّك خالقٌ، كالّذي يتزوّج ويُنجب ولداً، فيقال: جاء من الأمّ والأب، فلا تضنّ عليه بأنّه أحسن الخالقين، وإذا وجدتَ صفةً لله ﷻ ووصف بها البشر فلا بُدَّ أنْ تأخذها في إطار: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: من الآية ١١].

﴿رَمِيمٞ﴾: قديمة بالية تتفتّت.

ثمّ يردُّ الحقّ ﷻ على هذا المكذِّب وأمثاله بقوله:

(الآية ٧٩) - ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾:

﴿أَنشَأَهَآ﴾: يعني من العدم، وأنْ ينشئها من موجودٍ أَوْلَى.

﴿أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾: في الرّدّ على هذا المكذِّب يوحي بأنّ هناك مرّةً أخرى، وإحياءً آخر غير الأوّل.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾: أي بالخَلْق الأوّل من عدم وبالخَلْق الثّاني (وهي رميم)، وهو عليمٌ كيف يُكلِّف الإنسان، وكيف يجازيه، وعلى قَدْر التّكليف يكون الجزاء.

(الآية ٨٠) - ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ٨٠﴾:

يسوق الحقّ ﷻ لهم دليلاً آخر على طلاقة قدرته، فإن كنتم تُكذِّبون بالبعث، فانظروا إلى هذه الآية المادّيّة الّتي تشاهدونها، فالّذي يُحيي العظام

الّتي رَمَّتْ وأصبحت باليةً هو الّذي جعل لكم من الشّجر الأخضر ناراً تُوقِدونها، فيشتعل العود الأخضر، والخضرة دليل الرّطوبة والمائيّة، فكيف تأتي النّار من الماء، هذه آيةٌ يرونَها في البيئات العربيّة كلّ يوم، ومعلومٌ أنّ الحطب هو أوّل وقود عرفه الإنسان واستخدمه بسلام؛ لأنّه أصْفَى وقود، وهو صِحّيٌّ لا يلوّث البيئة، ولا يضرّ بها.

(الآية ٨١) - ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾:

هذا تَرَقٍّ في الدّليل، فبعد أنْ ذكر ﷻ آية جَعْل الشّجر الأخضر ناراً، يسوق الدّليل الأقوى، وهو خَلْق السّموات والأرض، السّموات دليلٌ من العلوّ الثّابت الّذي لا يتغيّر، والأرض دليلٌ ملامسٌ لنا، نشاهده ونباشره، وحيثيّة هذه الآية جاءت في آيةٍ أخرى، حيث قال الحقّ ﷻ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر]، فإنْ قال قائلٌ: لماذا خَلْق السّموات والأرض مع أنّها لا تحسّ ولا تتكلّم ولا تعلم.. أكبر من خَلْق النّاس؟ نقول: نعم خَلْق السّموات والأرض أكبر من خَلْق النّاس؛ لأنّها منذ خلقها الله ﷻ على حالها لم تتغيّر، وستظلّ إلى قيام السّاعة، أمّا أنت أيّها الإنسان فتموت، وقد يموت الإنسان وهو طفلٌ، وقد يموت وهو جنينٌ في بطن أمّه، وقد يموت وهو شابٌّ، وهو شيخٌ هَرِم، وقصارى ما يمكن أن يصل إليه في الدّنيا مئة عام أو يزيد عليها بضعة أعوام، فأين عمر الإنسان من عمر الشّمس أو القمر أو الأرض؟ إنّنا نتوارد على هذا الكون أفراداً وأمماً ودولاً، تذهب جميعها وتَفْنى وتبقى

السّماء والأرض كما هي لا يطرأ عليها تغيير، ولا تخرج عن قانون التّسخير في شيءٍ أبداً، ومنذ أن خلق الله ﷻ هذا الكون ما رأينا كوكباً خرج عن فلكه، ولا تخلَّف عن موعده، أو امتنع عن أداء مهمّته، هذا حال الجمادات في السّموات والأرض، فما حالكم أنتم أيّها العقلاء؟ لو تحدَّثنا في المادّة فهي تبقى وأنتم تموتون، وفي المعاني والقيم تتساند هذه الجمادات، وأنتم تتعاندون وتختلفون وتتصارعون، فأيُّكم أحسن خَلْقاً وأكبر؟! لذلك يجيب الحقّ ﷻ على هذا الاستفهام المنفي: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾، فيقول:

﴿بَلَىٰ﴾: أي نعم قادرٌ.

﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾: وخلَّاق صيغة مبالغة من خالق، ليؤكّد هذه القضيّة لكلّ مكذِّب بها، وهو ﷻ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾؛ أي بمَنْ خلق.

(الآية ٨٢) - ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾: هنا إشارةٌ لطيفةٌ من الحقّ ﷻ لكلّ مُكذِّب بالبعث، كأنّ الله ﷻ يقول لهم: يا مَنْ تكذِّبون بقدرة الله ﷻ على بَعْث العظام الّتي رمَّتْ، أتظنّون أنّ الله ﷻ يخلق بعلاج كما تخلقون أنتم، الله ﷻ الخالق لا يخلق بعلاجٍ، وإنّما يخلق بكلمة ﴿كُن﴾، بل يخلق ﷻ بمجرّد مراده، فإنْ أراد شيئاً كان، من غير أنْ يقول ويأمر، وما كلمة ﴿كُن﴾ إلّا لتقريب المسألة إلى أذهاننا، وسبق أنْ أوضحنا هذه العمليّة

بمثال، ولله المثل الأعلى، قلنا: كيف تنكر أيّها الإنسان قدرة الله ﷻ، وقد أفاض عليك بمثلها في ذات نفسك، فأنت مثلاً حينما تريد أنْ تقوم من مجلسك، ماذا تفعل؟ هل تأمر العضلات أنْ تتحرّك، بل هل تعرف أصلاً ما هي العضلات المسؤولة وما الأعصاب الّتي تتحكّم في هذه العمليّة؟ إنّك تقوم بمجرّد إرادتك للقيام وليس لك دَخْلٌ فيها، بدليل أنّ الطّفل الصّغير الّذي لا يعرف عن تكوين جسمه شيئاً يقوم إذا أراد القيام، فإذا كنتَ أنت أيّها الإنسان تنفعل لك الأشياء من غير أنْ تقولَ لها: انفعلي، فهل يليق بك أنْ تُكذِّب بهذا في حقّ ربّك وخالقك جلّ وعلا؟ فإنْ قُلْتَ: فلماذا لا آمر أعضائي وأقول لها: اعملي كذا وكذا؟ نقول: الحقّ ﷻ يقول للشّيء: ﴿كُن﴾؛ لأنّه ﷻ يعلم أنّ الأشياء ستأتمر بأمره، ولن تخرج عن مراده، إنّما هل أنت واثقٌ أنّها ستأتمر بأمرك إنْ أمرتها؟ إنّك لا تثق بهذه المسألة بدليل أنّ الله ﷻ حين يسلب الإنسان هذه القدرة تخرج أعضاؤه عن طاعته، فيريد أنْ يقوم فلا يستطيع، تشلّ الأعضاء فلا يتحرّك، فمجرّد إرادة المخلوق تسيطر على جوارحه، فهل نستبعد أن تكون إرادة الخالق الأعلى ﷻ تسيطر على هذا الكون المخلوق له ﷻ؟! وكلمة ﴿كُن﴾ يقولها الله ﷻ ليقرِّب لنا فَهْم المسألة، ويقولها؛ لأنّ الأشياء لا تتخلّف أبداً عن طاعته والانفعال لأمره، لذلك قال ﷻ موضّحاً استجابة الأرض لأمره ﷻ: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ [الانشقاق]؛ أي حَقَّ لها أنْ تسمع وأنْ تطيع.

﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ﴾: أي للشّيء الّذي لم يُوجد بَعْد، فكيف يخاطبه وهو ما يزال غَيْباً، قالوا: الخالق ﷻ خلق الأشياء كلّها أزلاً في عالمٍ اسمه: "عالم

المثال"، فالأشياء موجودةٌ بالفعل، لكن تنتظر الأمر بالظّهور والخروج إلى عالم الوجود؛ لذلك قال أحد العارفين: أمورٌ يُبديها ولا يبتديها.

(الآية ٨٣) - ﴿فَسُبْحَانَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

عرفنا في الآية السّابقة أنّ الحقّ ﷻ إذا قال: ﴿كُن﴾ انفعلتْ له الأشياء وأطاعت، وقلنا: إذا ورد لله ﷻ وَصْف يُوصف به البشر، فعلينا أنْ نأخذه في إطار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، فطبيعيّ أنْ تختم هذه الآيات والسّورة كلّها بقوله ﷻ: ﴿فَسُبْحَانَ﴾: وهو تنزيهٌ له عن أن يُشبهه أحدٌ، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

﴿مَلَكُوتُ﴾: من ملك، وهذه المادّة الميم واللّام والكاف تُستخدم على معانٍ أربعة:

الأوّل: نقول: مالك، وهو كلّ مَنْ ملَك شيئاً ولو كان يسيراً، فلو كان لا يملك إلّا الثّوب الّذي يلبسه يُسمَّى مالك.

الثّاني: نقول: مَلِك، وهو الّذي يملك مَنْ مَلَك؛ أي يملك أنْ يتصرّف فيه وفي إدارة حركته.

الثّالث: كلمة المُلْك، وهي أن يترقّى الملك في أمورٍ ظاهرةٍ يعرفها النّاس.

الرّابع: كلمة الملكوت، ويُراد بها المُلْك المستور غير الظّاهر، وهو أقوى وأعمّ من المُلْك.

وقد يكون الشّيء من عالم الملكوت، ثمّ يصير إلى عالم المُلك مثل الأشياء الّتي كانت غيباً واكتشفها الإنسان أو ابتكرها، فصارت مشهودة، وهناك أشياء تظلّ دائماً في عالم الملكوت لا نعرف عنها شيئاً إلّا في الآخرة، وهذا النّوع هو الّذي يُكذِّبون به، ومن ذلك قوله ﷻ في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: من الآية ٧٥]، يُطلعه الله تعالى على عالم الملكوت؛ لأنّه عندما أطلعه على عالم المُلْك وابتلاه نجح في الابتلاء بتفوّق، نجح في مراحل حياته كلّها، لذلك صار أهلاً أنْ يُطلِعه الله ﷻ على أسرار الكون، وعلى عالم الملكوت، وأسرار الملكوت لا يعلمها إلّا الله ﷻ، وقد بيّن ﷻ بعضها لبعض الأنبياء عليهم السلام وكلمة: ﴿مَلَكُوتُ﴾ تحمل معنى المبالغة، مثل: رحموت وجبروت ورهبوت، فهي للمبالغة في المُلْك، لكن نلحظ عند علماء القراءات أنّ أحدهم يقرأ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة]، فيقول: (مَلِكِ يوم الدين) من غير صيغة المبالغة، قالوا: لأنّ الكلام عن يوم الدّين، وفي هذا اليوم المُلْك كلّه لله ﷻ وليس لأحدٍ مُلْك، ولا حتّى الثّوب الّذي يرتديه.

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾: أي يوم القيامة، فالمرجع والمآل إليه، قال ﷻ: ﴿۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه]، فكونوا على ذِكْرٍ لهذه الحقيقة، فمَنْ لم يؤمن بنعمة الخَلْق ترهبه نعمة الإعادة والمرجع، فأنتم ما خُلِقْتم عبثاً، ولن تُتْرَكُوا سُدىً.

تَمَّ بِفَضْلِ اللهِ تعالى تَفْسِيرُ سورة يــس

الحمدُ لله الّذي جعلَ القُرآنَ الكريم نُوراً لا يُطْفَأُ مِصبَاحُهُ، وسِرَاجاً لا يَخْبُو تَوَقُّدُه، ومَنهَجاً لا يَضِلُّ سَالِكُهُ، وفُرقَاناً لا يَخمَدُ بُرهانُهُ، وبُنياناً لا تُهْدَمُ أحكامُهُ، وحَقَّاً لا يُخْذَلُ أعوانُهُ.

اللَّهمَّ ارْفَعْنا بالقُرآنِ الكريمِ في دَرَجِ الجِنَانِ، وارْفَعْ عَنَّا بِفَضْلِهِ الأحْزانَ، وزوِّدْنا بِفَضْلِهِ مِنَ الخَيراتِ الحِسانِ، وَضَاعِفْ لَنا الأُجُورَ بِرَحْمَتِكَ وإحْسَانِكَ يا وَاهِبَ المِنَنِ الحِسَانِ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا لِقُرْآنِكَ خَاشِعِينَ، وَبِلَيلِكَ قَائِمِينَ رَاكِعِينَ سَاجِدِينَ، وَبِعِبَادَتِكَ مُخْلِصِينَ، وَلِحَبِيبِكَ مُحَمَّدٍ ﷺ تَابِعِينَ، وَبِحُبِّكَ وَاصِلِينَ، وَلِجَنَّتِكَ مُسْتَحِقِّينَ، وَلِوَجْهِكَ الكَرِيمِ نَاظِرِينَ، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللّهمَّ اجْعَلنَا ممَّن تأدَّبَ بآدابِ القرآنِ، وائتمرَ بأوامرِه، وانتهى بنواهيه، والتمسَ غرائبَ علومِه، وخشَعَ لسماعِه، وخضعَ لكلامِه، وآمنَ بمتشابِهِه، وعَمِلَ بمُحكَمِه، واستنَّ بسُنَّتِه، وحافظَ على واجباتِه، وعَمَّرَ بتلاوتِه جميعَ أوقاتِه، ولم يغفَلْ عن تلاوتِه في حالةٍ من حالاتِه.

اللَّهُمَّ ارْحَمْنَا بِتَرْكِ المعَاصِي دَائِماً مَا أَحْيَيْتَنَا، وَارْحَمْنَا بِتَرْكِ مَا لا يعنِينَا، وارْزُقْنَا حُسْنَ النَّظَرِ فِيمَا يُرْضِيكَ عَنَّا، وَأَلْزِمْ قُلُوبَنَا حِفْظَ كِتَابِكَ كَمَا عَلَّمْتَنَا، وَنَوِّرْ بِهِ أَبْصَارَنَا، واشْرَحْ بِهِ صُدُورَنَا، واجْعَلْنَا نَتْلُوهُ كَمَا يُرْضِيكَ عَنَّا، وافْتَحْ بِهِ قُلُوبَنَا، وَأَطْلِقْ بِهِ أَلْسِنَتَنَا.

سُبْحَانَ ربِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وسَلامٌ عَلى المُرْسَلِينَ، والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين.

فهرس

رقم الآية – نصّ الآية رقم الصّفحة

تفسير سورة (يس) من الآية: (١–٨٣):

١– ﴿يسٓ ۝١﴾ ١١

٢– ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ ١٤

٣– ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣﴾ ١٦

٤– ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤﴾ ١٦

٥– ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ ١٧

٦– ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ ١٩

٧– ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧﴾ ٢٠

٨– ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨﴾ ٢٢

٩– ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩﴾ ٢٢

١٠– ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠﴾ ٢٣

١١– ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ۝١١﴾ ٢٤

١٢– ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ۝١٢﴾ ٢٦

١٣- ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾ ٢٩
١٤- ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾
..... ٣٠
١٥- ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا
تَكۡذِبُونَ ١٥﴾ ٣١
١٦- ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾ ٣٢
١٧- ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾ ٣٢
١٨- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾
..... ٣٢
١٩- ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۡۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾ ٣٣
٢٠- ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾ .. ٣٤
٢١- ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾ ٣٤
٢٢- ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾ ٣٥
٢٣- ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا
وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾ ٣٦
٢٤- ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤﴾ ٣٦
٢٥- ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾ ٣٧
٢٦- ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾ ٣٧
٢٧- ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾ ٣٨
٢٨- ﴿*وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾ .. ٣٨

٢٩- ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾ ٣٩
٣٠- ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾ .. ٤٠
٣١- ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١﴾ ٤٠
٣٢- ﴿وَإِن كُلٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢﴾ ٤١
٣٣- ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣﴾
..... ٤٢
٣٤- ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ٣٤﴾ .. ٤٣
٣٥- ﴿لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۖ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٣٥﴾ ٤٦
٣٦- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا
يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ ٤٧
٣٧- ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾ ٥٠
٣٨- ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾ ٥٢
٣٩- ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩﴾ ٥٥
٤٠- ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ
يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ ٥٥
٤١- ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١﴾ ٥٧
٤٢- ﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ٤٢﴾ ٥٩
٤٣- ﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ٤٣﴾ ٥٩
٤٤- ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٤٤﴾ ٦٠
٤٥- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٥﴾ ٦٠

٤٦- ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ ... ٦١
٤٧- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ ٦٢
٤٨- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ ٦٦
٤٩- ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ٦٧
٥٠- ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ٦٧
٥١- ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ ٦٨
٥٢- ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ٧٠
٥٣- ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ ٧٠
٥٤- ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ .. ٧١
٥٥- ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ٧٢
٥٦- ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ ٧٣
٥٧- ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ٧٤
٥٨- ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ ٧٤
٥٩- ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ٧٦
٦٠- ﴿*أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ ٧٧
٦١- ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ ٧٨
٦٢- ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ٧٩

٦٣- ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ٧٩
٦٤- ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ٨٠
٦٥- ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ٨٠
٦٦- ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ٨٢
٦٧- ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ٨٣
٦٨- ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ٨٣
٦٩- ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ ٨٥
٧٠- ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ ٨٧
٧١- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ ... ٨٨
٧٢- ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ٨٩
٧٣- ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ ٩٠
٧٤- ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ٩٠
٧٥- ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ ٩١
٧٦- ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ ٩١
٧٧- ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ ٩٣
٧٨- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ ... ٩٥
٧٩- ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ ٩٧
٨٠- ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ .. ٩٧

٨١- ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ ٩٨
٨٢- ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ ٩٩
٨٣- ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ ١٠١
تضرّعٌ ودعاء ١٠٣
فهرس: ١٠٥